الباب الأول

دراسة الأولياء

الفصل الأول : الأسس والمبادىء العامة .

الفصل الثانى : الموالد .

الفصل الثالث : تقارير خبرات ميدانية فى دراسة الأولياء .

الفصل الرابع : دليل مختصر للدراسة الميدانية للأولياء .

الباب الأول

دراسة الأولياء

الفصل الأول

الأسس والمبادىء العامة

مقـــدمة :

الأولياء فى رأى المعتقد الشعبى هم بعض الصالحين الذين يتميزون بالتقوى عادة ، ويظهرون من « الكرامات » ما يدل على جدارتهم بلقب الولاية هذا • والأولياء على خلاف بعض موضوعات المعتقد الشعبى الأخرى ــ كالأحلام مثلا ــ تتباين صورتها فى نفوس الشعب وممارستهم اليومية تباينا كبيرا عن صورتها فى العقيدة الدينية الصحيحة • فالأولياء من وجهة النظر الدينية ــ وبنص الكتاب الكريم ــ هم « الذين آمنـــو وكانوا يتقون ، الذين كانوا فى حياتهم لله عبادا مخلصين ، لم يتجهوا بقلوبهم الى غير الله ، ولم يقفوا بباب أحد سواه ، ولم يرفعوا أكف الضراعة الا اليه • ولقد كانوا يدعون الناس الى هدى الله وشرعه »(١) • وانطلاقا من وجهة النظر هذه لايعرف الدين الاسلامى الصحيح شيئا يقال له « مقامات الأولياء » سوى ما يكون للمؤمنين المتقين عند ربهم من درجات • وانما يعرف كما يعرف الناس أن لهم قبورا ، وأن قبورهم كقبور سائر موتى المسلمين ، يحرم تشييدها وزخرفتها واقامة المقاصير عليها ، وتحرم الصلاة فيها واليها ، والطوف بها ، ومناجاة من فيها ، والتمسح بجدرانها ، وتقبيلها والتعلق بها ، ويحرم وضع أستار وعمائم عليها ، وايقاد شموع أو ثريات حولها • وكل ذلك ــ مما يتهافت الناس

---

(١) انظر محمود شلتوت ، الفتـــاوى ، دار الشروق ، القـــاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ص ١٩٠ ــ ١٩١ •

عليه ويتسابقون فى فعله على أنه قربة لله أو تكـــريم للولى أو قربة وتكريم ــ خروج عن حدود الدين ، وارتكاب لما حرمه الله ورسوله فى العقيدة والعمل ، واضاعة للأموال فى غير فائدة ، وسبيل للتغرير بأرباب العقول الضعيفة ، واحتيال على سلب الأموال بالباطل »(٢) .

تلك اشارة سريعة تدلنا على مدى التباين بين التصور الشعبى للأولياء والتصور الدينى الصحيح لهم ولأسلوب التعامل معهم أحياء أو أمواتا . وقد قصدنا الى اثباتها فى صدر الحديث ، كى نتبين أن عرضنا للمعتقد الشعبى الشائع بين الناس يختلف الى هذا المدى البعيد عن المعتقد الرسمى .

وهناك فارق آخر متميز بين مكانة الأولياء فى الدين الاسلامى (أو عند المسلمين) ومكانتهم فى ديانات أخرى ، كالمسيحية مثلا . فالاســـلام لا يعرف عملية رسامة الولى أو القديس ، أى أنه ليس محتاجا الى ترخيص من جانب القائمين على الدين الرسمى لكى يكتسب مكانته . ومعنى ذلك أن كل الممارسات الدائرة فى مجال الأولياء لا تربطها بالدين صلة من شرع أو سنه . ولعل هذا الارتباط الوحيد الذى نراه قائما فى بعض الحالات ، حيث توجد قبور بعض الأولياء (خاصة المشاهير والكبار منهم) داخل المساجد أو بجوارها وعلى مقربة وثيقة منها . ولعل هذه الصلة المادية البسيطة تمثل فى نفوس أفراد الشعب صلة أعمق ورابطة أقوى ، لا ترى فارقا بين ممارسة الفريضة (داخل المسجد) وزيارة الولى والطواف بضريحه . فالشعب بذلك يدخل هذه الممارسات (الوثنية فى الحقيقة) فى دائرة الدين الرسمى ، ان لم يكن بشكل واع ، فعلى نحو تلقائى يعلو على أى شك أو مناقشة .

وهناك أعداد لا حصر لها من الأولياء ، يتدرجون الى فئات شتى ومستويات متباينة . وعلى رأس الجميع يأتى أهل البيت والصحابة .

---

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٦٧ ــ ١٦٨ .

ويأتى بعد تلك الفئة بمسافة بعيدة أصحاب أو مؤسسو الطرق الصوفية والمذاهب الاسلامية الرئيسية • وفى النهاية قاعدة ضخمة لا حصر لها من الأولياء المحليين الأقل شأنا ، والذين قد يسمون فقط المشايخ ، ونصادف عددا منهم فى كل قرية ونجع من قرى مصر ، وفى كل ركن من أركان مدنها • وسبيل كل واحد من هؤلاء ــ خاصة الفئة الأخيرة ــ الى الشهرة والاحترام والتكريم هو ما يبديه من كرامات ، سواء فى أثناء حياته أو بعد مماته •

١ ــ الأولياء من النســـاء :

ورغم أن تفكيرنا فى الأولياء ينصرف عادة الى الذكور منهم ، الا أننا سنرى بعد الدراسة والبحث أن هناك طائفة من الأولياء الاناث • وعلى رأس تلك الفئة أيضا تأتى بنات الرسول وسيدات البيت النبوى • وتشتهر فى القاهرة ــ على سبيل المثال ــ مقامات كل من السيدة زينب ، والسيدة سكينة ، والسيدة نفيسة • كما أن هناك شيخات محليات ، كن نسوة عاديات ، وأظهرن امارات الولاية ــ الكرامات ــ أثناء حياتهن أو بعـــد موتهن ، فأقام لهن أهل القرى المقامات ، ويحظين بموالد كبيرة مزدحمة حية • (انظر الفصل الثالث من هذا الباب عن « التقارير الميدانية » حيث يرد الحديث عن بعضهن) • وليس بوسعنا أن نحدد هنا نسبة معينة للشيخات الى المشايخ(٣) •

والجدير بالذكر هنا أن الأشجار المقدسة ، أو المزارات المقامة حول الأشجار ، تتخذ مظهر التقديس الذى يعطى للاناث ، فالشجرة فى العربية كما نعلم مؤنثة • ولذلك فان كل أساليب مخاطبتها ورجائها واستدعائها

---

(٣) حدد توفيق كنعان نسبة الأولياء الاناث الى مجموع الأولياء فى فلسطين بحوالى ١٣ ٪ • انظر :

Canaan; Taufiq; Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine; London; 1927; pp. 235 ff.

... الخ تتم فى صيغة المؤنث • وسنعود الى الكلام فيما بعد بشىء من التفصيل عن الاشجار المقدسة •

٢ ــ القطب :

ويعتقد أن القطب هو أعظم الأولياء الأحياء فى زمان معين وأعلاهم شأنا • وان كان البعض يرى أنه يحل فى بعض الأولياء فترة بعد أخرى • وهو يعد ــ على نحو ما ــ رئيس كل الأولياء فى زمانه • ويقول عنه وليم لين ان التصور الشعبى للقطب أنه كثيرا ما يظهر ، ولكنه لا يعرف ، وكذلك أتباعه ذوو السلطة • وهو يظهر دائما متواضعا رث الثياب • ولا يشتد فى مؤاخذة من يخالف الدين أو يتظاهر بالتقوى • ومع أن القطب يختفى دائما ، فان أماكن وجوده معروفة ، ولكنه قليلا ما يظهر فيها • ويعتقد البعض أن القطب يكون فوق الكعبة ... ويفضل القطب مركزا آخر بباب القاهرة المسمى باب زويلة • ويسمى العامة ــ فى أيام لين ــ باب زويلة « بوابة المتولى » (أى القطب الذى يتولى رئاسة أولياء الزمان) ، لانهم كانوا يعتقدون أن هذا الباب هو مركز هذا الكائن المجهول • وكان يوجد وراء أحد مصراعى الباب الكبير ــ الذى لا تقفل أبدا ــ فضاء صغير يقال انه مكان القطب • ويقرأ الكثير من المارة الفاتحة(٤) •

وللقطب فى مصر مراكز أخرى أقل شهرة ، أحدها فى قبر السيد أحمد البدوى بطنطا ، والآخر فى مدينة المحلة الكبرى وغيرها • ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة الى القاهرة أو من مكان الى آخر فى لحظة • ولا يقتصر القطب على سكن أماكنه العديدة المفضلة ، وانما هو دائم التنقل فى شتى بقاع الارض • وحينما يموت قطب يتولى غيره مكانه فى الحال •

---

(٤) يحكى وليم لين أن المصابين بالصداع يدقون مسمارا فى باب المتولى (باب زويلة) لفك السحر المعمول لهم . كما أن المصابين بوجع الاسنان يخلعون سنا ويولجونها فى احد شقوق الباب ، أو يلصقونها به بأى طريقة أخرى ، حتى يضمنوا عدم اصابتهم بالمرض نفسه ، انظر ، وليم لين ، المصريون المحدثون ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠٤ .

٣ — كرامات الأولياء :

ويستطيع الأولياء ممارسة ألوان وصنوف عديدة من المعجزات ، ولا نستطيع ، ولا أعتقد أن أى أحد يستطيع ، حصرها جميعا ، فذلك أمر عسير فوق أنه غير مطلوب • انما يمكننا أن نقدم فيما يلى قائمة بأشهر المعجزات التى تنسب الى الأولياء • (ونلاحظ مرة أخرى أنها تتعارض فى أغلبها مع أصول العقيدة وقواعد المنطق وحقائق الحياة) •

١ — احياء الموتى •
٢ — مخاطبة الأولياء الموتى •
٣ — تجفيف البحر ، والمشى على الماء •
٤ — القدرة على تحويل الأشياء ، مثلا تحويل الماء الى عسل •
٥ — قطع المسافات البعيدة فى لمح البصر (الطيران ليلا) •
٦ — مخاطبة الحيوانات والأشجار وغيرها من عناصر الطبيعة •
٧ — شفاء الأمراض (بمختلف الوسائل) •
٨ — اخضاع الحيوانات المتوحشة •
٩ — التواجد فى أكثر من مكان فى نفس الوقت •
١٠ — توقيف الوقت •
١١ — تلبية دعوة من يلوذ به من الناس فى أى أمر من الأمور •
١٢ — التنبؤ بالكوارث ، أو بالغيب عموما •
١٣ — القدرة على احتمال الجوع والعطش مدة طويلة •
١٤ — القدرة على تناول كميات كبيرة جدا من الطعام •
١٥ — القدرة على التحكم فى الأشياء الطبيعية أو الأمور المعتادة •
١٦ — التمتع بالعناية الالهية •
١٧ — معاقبة الله لمن يهين الولى أو يعتدى عليه •
١٨ — القدرة على تحويل شكله وتغيير هيئته(٥) •

---

(٥) انظر كريس ، المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ص ٩ — ١٠ .

والملاحظ على تلك المعجزات (الكرامات) أنهـا مستخلصة من حكايات الأولياء ، وهى لهذا السبب تعكس لنا بكل جلاء التصور الشعبى للولى من حيث طبيعته ، وامكانياته ، وقدراته ، وهى قبل هذا وبعد هذا مبرر ولايته واعتقاد الناس فى بركته • والأولياء قادرون على ممارسـة هذه المعجزات فى حياتهم وبعد مماتهم على السواء • أى أن الولى الحقيقى لا يفقد سر ولايته بعد موته ، ولكنه يستمر يلبى رغبات الناس ويستجيب لدعواتهم ويشفى مرضاهم ، وهم يستمرون يكتبـون اليه الرسائل(٦) لانقاذهم أو المشورة عليهم فى شئون حياتهم كما سنوضح فى موضـع لاحق من هذا الفصل • ومن أقوى الكرامات التى يبديها الأولياء بعـد وفاتهم التصدى بقوة لكل من تسول له نفسه اهانة ضريحهم أو الاعتداء عليه أو تدنيسه •

وقد أورد وليم لين حكاية طريفة تبين طبيعة بعض هذه الكرامات التى يبديها الأولياء الأحياء ، ورد فعل الناس لها • وهى فى ظاهرها تنطوى على كثير من المبالغات (وهو سمة مميزة للقصص التى تبرر وتفسر وتدعم المعتقد الشعبى) ، ولكنها تبرز بوضوح تصور الناس لكرامة الولى ، وتكشف عن العناء الذى يمكن أن يتحمله الشخص من وراء ولايته(٧) •

---

(٦) أورد الدكتور سيد عويس تحليلا مفصلا لعديد من هذه الرسائل فى دراسته المتعمقة حول هذا الموضوع انظر :
د. سيد عويس « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر ، ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » .
القاهرة ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٦٥ .

(٧) وهى فى رأيى نغمة تنم عن «حسد» عامة الناس لهؤلاء الأولياء الذين وهبهم الله كل تلك القدرات ومنحهم كل هذه الكرامات . ولكن كما أن هنـاك كثيرا من القصص والنوادر الشعبية التى توضح أن الغنى ليس دائما سعيدا بأمواله ، بل ان الثراء قد يكون فى بعض الاحيان مصدر تعاسة الغنى ونقمه عليه . كذلك يمكننا أن نستخرج من وراء تلك القصة عبرة للانسان العـادى الذى يحسد الولى على كراماته ، فيرى أن الولى نفسه ليس سعيدا بها ، بل انها قد تكون مصدر تعذيب له ومشقة بالغة ، الى حد أنه يتوسـل كى تسحب منه هذه الفضيلة ويعود انسانا عاديا كما كان . انظر نص الحكاية عن وليم لين ، المصريون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

ورغم غرابة القصة فقد حرص لين على أن يدرجها فى كتابه ، لانه شاهد أن أبناء القاهرة يؤمنون بها تمام الايمان فى وقته • وقد ادرك لين بوضوح : « أننا عند الكلام عن الخرافات نواجه الآراء أكثر مما نواجه الأفعال » (ص ٢٠٦) • وأنا أوردها لانها فوق الاعتبارات السابقة تحوى عديدا من الموتيفات (العناصر) التى تتردد بكثرة فى حكايات الأولياء من عصور وأماكن مختلفة •

يحكى لين : « اشتدت رغبة أحد تجار المدينة الأتقياء فى أن يصير وليا ، فتوجه الى آخر ينتمى الى هذه الطبقة المقدسة ، فتوسل اليه أن يساعده على التشرف بمقابلة القطب • وبعد أن احتمل الطالب امتحانا صارما لمعرفة بواعثه ، طلب منه أن يتوضأ مبكرا فى الصباح التالى ثم يقصد مسجد المؤيد ، حيث يوجد باحدى زواياه باب زويلة أو المتولى السابق ذكره ، فيقبض على أول من يراه خارجا من الباب لهذا المسجد • وفعل الرجل ما قيل له • وكان أول من خرج رجل شيخ مهيب المنظر ، ولكنه رث الثياب يلبس زعبوطا من الصوف أسمر اللون ، وقد دل ذلك على أنه القطب • فقبل الطالب يده وتضرع اليه أن يقبله بين أصحاب الدرك • فقبل القطب التماسه بعد تردد طويل ثم قال : التزم القسم الذى يشمل الدرب الاحمر وما يجاوره » • وفى الحال وجد الطالب نفسه وليا ، ولاحظ أنه يعرف أشياء تخفى على البشر العاديين ، اذ يقال ان الله يعلم الولى جميع الاسرار اللازم معرفتها • ويقال عادة ان الولى يعلم الغيب • ويبدو هذا متناقضا لما نقرأه فى عدة مواضع من القرآن ، أنه لا يعلم الغيب الا الله • الا أن المسلمين ، وهم قلما يرتبكون فى مناقشة ما ، يبينون أن عبارات القرآن يقصد بها معرفة الاسرار بمعناها المطلق ، وأن الله يطلع الأولياء على مثل هذه الاسرار كلما شاء ذلك ••• ولما تولى الولى السابق ذكره أعماله أخذ يتجول فى قسمه • فرأى بائع فول يبيع لحرفائه كالعادة ، فتناول حجرا وكسر بها قدر الفول • فقفز البائع اليه وتناول جريدة بالقرب منه وضرب الولى بها ضربا مبرحا •

ولم يشك لولى ولم يصرخ وانصرف حين أذن له • وحاول بائع الفول بعد انصراف الرجل أن يلتقط بعض ما تناثر من القدر ، وكان قد بقى منهـا قطعة فى مكانها • فلما نظر فيها رأى ثعبانا ساما ميتا • فصاح مرتاعا مما فعل : « لا حول ولا قوة الا بالله ! استغفر الله العظيم • ماذا فعلت ؟ هذا الرجل ولى وقد أتلف الفول الذى كاد يسمم حرفائى » • وجعل ينظر الى كل مار طول هذا اليوم عسى أن يرى مرة أخرى الولى الذى أساء اليه ليستغفره • ولكنه لم يره لان الولى كان مرضوض الجسم لايستطيع أن يمشى • وفى اليوم التالى نهض الولى بالرغم من ورم أعضائه ، وأخذ يعرج خلال قسمة ، فكسر جرة لبن كبيرة فى دكان لا يبعد عن دكان بائع الفول كثيرا فعامله اللبان معاملة أنفوال • وبينما كان يضربه ، أسرع بعض الناس اليه وأخبروه أن هذا الرجل الذى يضربه ولى ، ثم سردوا عليه قصة الحية التى كانت فى قدر الفول • وقالوا اذهب وأنظر جرتك فسترى فيها شيئا ساما أو نجسا • ونظر الرجل فوجد فى بقية الجرة كلبا نافقا •• وفى اليوم الثالث سار الولى فى الدرب الاحمر يعرج على عصا متألما ، فرأى خادما يحمل على رأسه صينية عليها أطباق من اللحم والخضر والفاكهة ، أعدت لجماعة كانوا ذاهبين الى النزهة فى الريف • فوضع الولى عصاه اذ زاك بين رجلى الخادم فقلبه ، وتناثرت محتويات الاطباق فى الشارع • فأخذ الخادم يصب على الولى اللعنات ويضربه ضربا عنيفا ، بالقدر الذى كان يتوقع أن يناله من سيده الغاضب • وتجمع الناس ، ولاحظ أحدهم كلبا يأكل من هذا الطعام ثم لم يلبث أن نفق • فسارع الى منع الخادم من ضرب الرجل ، وأخبره بالحادث الذى أثبت ولايته • فجعل الخادم يعتذر للولى ويرجوه أن يصفح عنه • غير أن الرجل سئم وظيفته الجديدة فابتهل الى الله والى القطب أن يعفى منها وأجيب الى توسلاته واستردت قدرته الخارقة للعادة • فعاد الى دكانه وهو أسعد من قبل(٨) •

---

(٨) وليم لين ، المصريون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٥ — ٢٠٦ •

وهناك فضلا عن هذا عشرات بل مئات الكتب التى دون فيها أصحابها بعض الكرامات التى تروى عن هذا الولى أو ذاك • ونجد بعض هذه الكتب خاص بأسرة أو عائلة معينة يحكى كرامات أفرادها (مثل كتب معجزات أهل البيت النبوى)(٩) • وبعضها خاص بولى معين ، كالسيد البدوى ، أو ابراهيم الدسوقى ،أو عبد القادر الجيلانى ، أو الرفاعى ••• الخ • وبعضها مكتوب بالنثر ، وبعضها مروى بالشعر وهكذا • وبعضها منسوب لرواة أو لمصادر محددة بالاسم ، وبعضها غفل من المصدر •

وسأحاول فيما يلى أن أقدم نماذج قليلة تعطى فكرة عن هذه التنويعة الكبيرة ، دون أن نتجاوز قيود الحيز التى تفرضها علينا طبيعة الدراسة • والكرامة الاولى أنقلها عن كتاب منسوب لمؤلف محدد بالاسم(١٠) • والطريف فيها أنها تلقى الضوء على فكرة هامة نعرفها من المعتقد الشعبى الشائع معرفة جيدة هى التخصص الاقليمى (أو المكانى) للولى ، واحترام الأولياء الشديد لتخصص كل منهم فى دائرة معينة ، وحتى لو استغاث به أحدهم فى داخل دائرة آخر ، فانه لا يهب الى نجدته الا تحت ظروف معينة وبشكل استثنائى • وتحكى قصص أخرى أن الولى مسئول عن رفاهية ومصالح أبناء قريته (خاصة بالنسبة للأولياء المحليين) • اذ يحكى راوية من قرية بنى واللمس مركز مغاغة محافظة المنيا أن ولى قريته ظهر له عدة مرات أثناء أدائه الحج وأدى له خدمات ومساعدات كانت تساوى انقاذ حياته من أخطار محققة •

ويحكى المؤلف أحمد عز الدين عبد الله خلف الله احدى كرامات

---

(٩) منها مثلا محمد على سرية ، الأنوار البدرية فى المعجزات النبوية ، ثلاثة اجزاء ، المنصورة ، د. ت .

(١٠) أحمد عز الدين عبد الله خلف الله ، كرامات وأوراد القطب النبوى السيد الشريف العلوى السيد أحمد البدوى كما رواها العلماء والمؤرخون المعاصرون ، الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

السيد البدوى فيقول : « وروى مؤلف الكتاب(١١) المذكور عن النقيب زيادة خادم زاوية السلطان الحنفى : أن زوجته (زوجة النقيب) مرضت مرضا شديدا ، أشرفت فيه على الهلاك وكانت تسكن فى طابق فوق الزاوية ، والناس يدخلون للسؤال عنها ، وكانت تصيح من شدة الألم وتقول يا سيدى أحمد يا بدوى خاطرك معى ، ولازمها المرض مدة طويلة ، وهى لا تكف عن الاستغاثة بالسيد رضى الله تعالى عنه ، وفى ليلة من الليالى انقطع عنها الكلام وأصبحت لا تستطيع أن ترد على سؤال وساءت حالتها حتى انصرف عودها من عندها بعد العشاء وقد أيقنوا بحدوث الوفاة هذه الليلة ، وفى الغد دخلوا عليها فوجدوها فى تمام الصحة والعافية • فقالوا لها يا فلانة كنت الليلة قد أشرفت على الموت وما قلنا أنك تصبحين فى الدنيا •

قالت : ان حكايتى عجيبة • قالوا : وما هى ؟

قالت : بينما أنا فى هذه الليلة نائمة اذ رأيت رجلين قد دخلا على وقالا لى : قومى كلمى • فقلت : أكلم من ؟ قالا : رجلا أرسلنا خلفك ، فقلت لهما : والله ما أقدر أمشى من شدة المرض — فقالا : قومى نحن نعينك — قالت : فأخذانى ومضيا بى الى المدرسة المعروفة بالمؤيدية فقالا ادخلى ، فدخلت وأنا بينهما ، حتى أقعدانى بين يدى رجل جالس وعلى وجهه لثام وعليه جبة عظيمة واسعة الأكمام ، وهو عريض الصدر أحمر الوجه أحمر العينين فقال لى : كم تنادينا وتستغيثين بنا ، أنت ما تعلمين أنك فى حمى رجل من الرجال الكبار المتمكنين ، وأنت تستغيثين بنا فى موضعه وفى حماه ، أنت تظنين أننا نتعرض عليه فى موضعه ومحله نتهجم عليه ، أما تعلمين أن الأدب بين الفقراء مطلوب فلا تعودى فى الوقوع فى هذا القول • بل قولى : أغثنى يا سيدى محمد يا حنفى ، خاطرك معى ثم استيقظت من نومى فو الله كأنه ما كان بى

---

(١١) العلامة على بن عمر البتنونى : السر الصفى فى مناقب السلطان الحنفى ، ج ١ ، ص ص ٤٦ — ٤٧ .

مرض وقد شفانى الله تعالى وأصبحت بخير وعافية »(١٢) .

ويعلق مؤلف الكتاب على هذه الرواية قائلاً : « فتأمل فى سماع السيد أحمد البدوى ، لاستغاثتها وفى ابطائه عنها مراعاة للأدب مع العارف الكبير السلطان الحنفى ، وفى اجابته لها وطريقته فى ارشادها الى الأدب مع أولياء الله عز وجل . وهذه الكرامة رواها المؤلف وهو عالم جليل عن صاحب القصة نفسها »(١٣) .

وتحكى قصة أخرى كرامة من نوع آخر تدل على مقدرة أخرى فائقة من قدرات السيد البدوى ، يقول مؤلف نفس الكتاب : — « روى الشيخ محمد الحنفى الصديقى فى طبقاته : أن الشيخ ركين استأذن أستاذه فى الرحيل الى بيت الله الحرام بقصد الحج ، فأذن له ، ولما ودعه ، أراد الشيخ ركين أن يأخذ عباءة أستاذه تبركا بآثاره ، فأبى أن يعطيها له ، وقال : أخشى أن تضيع منك ولكن الشيخ ركين تمكن من أن يأخذها دون أن يراه ، وسافر حتى أدى الحج . ورجع مع الحجاج الى العقبة ، وتفقد العباءة فوجدها تحت أرجل الابل تدوسها ، فبادر اليها والتقطها وغسلها ، ونشرها ، ثم انشغل عنها ببعض مصالحه حتى اذا ما تذكرها ، رجع اليها فلم يجدها ، فأخذ يسأل عنها لعله يعثر عليها ، فلم يدله عليها أحد ، ولما وصل الى مصر ، بادر فاشترى عباءة أغلى ثمنا منها ، وواصل السفر الى طنطا ، وطلع الى السيد البدوى ليسلم عليه ، فوجد العباءة عنده ، فدهش لما رآها ، فقال له السيد : لا تعجب يا ركين فانك لما نشرتها خفت عليها من الضياع فأخذتها ونشرتها فى مكانها »(١٤) .

وتحت أيدينا ديوان الأنوار البدرية (أنظر هامش سابق) فى

(١٢) انظر الصفحات ٦١ ، ٦٢ من المرجع السابق .
(١٣) صفحة ٦٣ ، نفس المرجع .
(١٤) انظر المرجع السابق الصفحات ٥٣ ، ٥٤ .

ثلاثة أجزاء يحكى معجزات أهل البيت فى نظم ركيك ، يغلب عليه الطابع القاص ، وهو مما يغنى أساسا فى الموالد أو ينشد فى المجالس الشعبية • ونختار من الجزء الثالث من هذا الكتاب نموذجا لاحدى كرامات السيدة نفيسه • وتحكى القصة (الشعرية) عن فتاة كانت تلعب مع مجموعة أولاد من جاراتها ، وكانت ترتدى فوق رأسها منديلا محلى بجنيهات ذهبية • مما أثار طمع أحد الأولاد فى هذه الثروة التى تحملها على رأسها ، فاستدرج الفتاة الى مكان بعيد عن المجموعة وذبحها بسكين كان يخفيه فى ملابسه ، وسرق منديلها وهرب • ولكن أهل البنت جدوا فى البحث عنها ، الى أن استطاع الحاكم الوصول اليه ، فاعترف الولد بجريمته ، ومكان تواجد جثة الفتاة • •

ولكن الصدفة البحتة — وهى فى نفس الوقت محور الكرامة — أن تلك الواقعة حدثت أمام قبر السيدة نفيسة • وذهب الأهل الى المكان الذى عينه الغلام ، فوجدوا ابنتهم سليمة ، ولكن مكان الجرح فى رقبتها قد اندمل ، وأخذت تحكى لهم حكايتها : —

خذنى الطفل دافى الحال ... من دون بقى الأطفال
ونا طفلة لسه عيال ... ونزلنى فسقية
أمام قبر النفيسة(*) ... الجوهرة النفيسة
ودبح أو داج حسيسه ... وخذ منى الطاقية(**)
وقدامى شايفاه ... ومش حاسه بفعلاه
وبعد ما راح والله ... لقيت فيه ست جاية
مسكت مكان مجروح ... وأنا فيه برضة الروح
منعت دمى المسفوح ... وجففت جرحيه(***)

(*) المقصود السيدة نفيسة صاحبة الكرامة .
(**) المزينة بالجنيهات الذهبية ، وسبب الجريمة .
(***) جرحى .

لقيتهـا شبه القمر فى الحسن جـاية لى
مسـحت على الجرح طاب الجرح طوالى
وطمنتنى ونا وحـدى فى مـكان خالى
أنا ساكنة جارك هنا يا بنت ما تخافيش

أنا السيدة المـاجدة نسل النبى الغالى

قـولى لأهـلك نفيسـة كانت ليـه ونيسـة
وقولى لهـم يا أنيسـة عقـل الأطفـال شـوية
بلاش وضـع الأمـوال على راسك بقى فى الحـال
تأمنى غـدر الأطفـال وتعيشـى متهنيـة(١٥)

٤ ــ الزيـارة :

الزيارة هى المناسـبة الاساسية التى يبـدى فيهـا الانسـان الشعبى تكريمـه للولى ، ويقـدم فيهـا النذر ، ويدعـو للـولى ويسأله المعونة فى مواجهة مشكلة معينة .. الخ . ولذلك فان تقديس الأولياء لا يمكن تصوره منفصلا عن « المـزار » أى « الضريح » أو « الشاهد » الذى يوجد الولى تحته ، أو يعتقد أنه موجود تحته . وان كان أحيانا يعتقد أنه ليس موجودا اطلاقا ، وانما أنشىء هذا الضريح بناء على رؤية ظهرت لأحد أهل القرية ، طلب خلالها الولى بنفسه من صاحب الرؤيا أن يبنى له « مقاما » فى مكان معين . وهؤلاء هم « الأولياء المؤشرون » . وسنتحدث عنهم فيما بعد .

وأضرحة الأولياء الكبار من أهل البيت أو صحابة رسول الله أو أصحاب المذاهب الشرعية أو مؤسسى الطرق الصوفية أو مشاهير الأولياء عموما تبنى بكثير من مظاهر الأبهة والفخامة فى المدن الكبرى عادة .وهى

---

(١٥) محمـد على سرية ، الأنوار البدرية .. ، مرجع سابق ، الجزء الثالث ، ص ص ١٥٢ وما بعدها ، خاصة صفحتى ١٥٤ ــ ١٥٥ .

توجد فى مساجد كبرى أيضا ، أو يحدث أن تنشأ المساجد الكبرى حولها اذا كانت موجودة أصلا • واللافت للنظر حقـا أن أولئك الأولياء الكبار المشاهير نادرا ما يظهرون للناس (خاصة فى المدن) أو يكشفون عن كراماتهم • والسبب فى ذلك أن فترة ابتعادهم عن عالم الأحياء قـد طالت كثيرا •

وفى مقابل هذه الفئة توجد فئة الأولياء المحليين فى كل قرية من قرى مصر ، وما زالوا جميعا ، أو الجانب الأكبر منهم ، يظهر كرامات للناس فى الوقت الحاضر • وأضرحة هؤلاء الأولياء تكون فى العادة عبارة عن مقابر بسيطة أشد البساطة حولها سور أو بدون سور يفصلها عن سائر المقابر المحيطة بها • كمـا أنها قد توجد أحيانا أخرى داخل أحد المساجد فى القرية • وليس من المحتم كما أشرت أن توجـد جثة الولى داخل ضريحه ، حيث توجد أضرحة لكبار الأولياء بلا أى أثر لأجسادهم داخلها فى كثير من القرى النائية ، والناس تعلم هذا • ولكنها تؤدى كافة طقوس الزيارة لهذا الضريح الخالى ، ومن الأرجح أن الزائر لا يفكر وقت طوافه حول الشاهد فى خلو الضريح من أى أثر للولى •

٥ ــ الأولياء الأحيـاء :

هناك بعض الأشخاص الذين يلقون مظاهر التكريم والتقديس أثناء حياتهم ، ولكن من دائرة محدودة نسبيا من الناس ، ليس من اللازم أن يكونوا من نفس الحى أو القرية ، وقد يكونون فى قرية نائية عن القرية التى ولد فيها الولى الحى ويعيش فيها • وهؤلاء الأولياء الأحياء عبـارة عن أشـخاص على جانب كبير من التدين والزهد والانقطاع للعبادة • كما أنهم قد يكونون من المجاذيب أو أشباه المجانين ، الذين يبدون مع ذلك قدرا من الكرامات ، خاصة ما يدل منها على صلاح و « كشف »(١٦) • ويلتمس الناس بركة هؤلاء الأولياء بأن يلمسوهم ،

---

(١٦) سجل وليم لين بأسى بالغ ودهشة كبيرة ظاهرة الأولياء المجاذيب حيث أشار الى أن المصريين يظهرون التقديس لاقل الناس استحقاقا له . =

أو يدعوهم يقرأون عليهم بعض السور أو الأدعية أو غير ذلك من صور التماس البركة • وقـد يدعوهم يتفلون على طعـام أو شراب يتناوله الناس بعد ذلك ، أو فى فم طفل مريض •• الخ • ومن البديهى أن هؤلاء الأولياء الاحياء يظلون يشغلون نفس المكانة الرفيعة فى نفـوس الناس بعد موتهم ، وقد يبالغ الناس فى رواية كراماتهم ، ويزايدون فى مظاهر التقرب اليهم •

٦ ــ أرواح الموتى التى تلبس الأحياء :

على أنه يحدث فى بعض الاحيان أن يلقى أحد الاولياء بعض مظاهر التكريم دون أن يكون من أهل البيت أو من الصحابة أو من كبار رجال الدين أو من المجاذيب • فكيف يحدث ذلك ؟ الملاحظ فى بعض الأحيان أن يظهر روح أحد الموتى (من الناس العاديين) ويلبس أحد أهل القرية من أقارب هذا المتوفى أو من غير أقاربه • وتلك الظاهرة هى التى أطلق عليها هانز فينكلر اسم « أرواح الموتى التى تلبس الاحياء » ، وألف عنها كتابا بهذا الاسم(١٧) • والأرجح أن تلبس روح الميت واحدا من أفراد سلالته ، وبعد موته بفترة قد تكون طويلة أو قصيرة • ويحدث ذلك بأن يظهر الميت للحى فى المنام ، ويخبره بأنه « سيركبه كما يركب الجمل » • وبذلك يظل هذا الحى « ملبوسا » أو ممسوسا (ولو أن الممسوس هو الذى مسه الجن فقط) •

= فيعتبرون الابله أو المجنون مخلوقا عقله فى السماء وجسده يختلط بالبشر • ويعدونه لذلك وليا • ومهما ارتكب الولى المشهور من الخطايا (وكثيرا منهم يخالفون الدين) فهى لا تؤثر على قداسته ، اذ تعتبر نتيجة تجرد عقله من الأشياء الدنيوية • فروحه أو قواه العقلية كلها مستغرقة فى التقوى ، ولذلك تترك شهواته بلا رقيب •• الخ ، وليم لين ، المصريون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ •

(١٧) انظر :

H. A. Winkler; Die reitenden Geister der Toten; Stuttgart; 1936.

واذا أظهرت روح هذا الميت كرامات واضحة مقنعة لأهل القرية أو العائلة التى ظهرت فيها ، فانه يبنى للميت ضريح أو مقام • وقد تتركز مظاهر التقديس فى الحى الذى لبسته روح هذا الميت • ونجده يمارس « مستلزمات الولاية » من علاج المرضى ، ومعرفة المجهول ، والانبـــاء بالغيب ، وما الى ذلك من كرامات •

٧ ــ الأوليـــاء المؤشرون :

ومع أن الكلام الكثـــير الذى سبق يؤكد لنا أن تكريم الاوليـــاء فى مصر لا يمكن تصوره بدون ضريح ومقام ، الا أننا نجد مع ذلك عديدا من الاوليـــاء الذين تبنى لهم مقامات بلا قبـــور ، أو أضرحة خاوية • أولئك هم الأولياء المؤشرون(١٨) • والولى المؤشر قد يكون شخصا عاديا من أهل القرية ، أو واحدا من أهل البيت ، أو الصحابة ، أو كبار رجال الدين •• الخ • ويظهر لأحد الاحياء فى المنام • ويطلب منه صراحة أن يبنى له شاهدا أو مقاما • وقد يلبى الانسان صاحب الرؤيا الطلب على الفور ، وقد يتقاعس ، فيعاود الولى الظهور له مرة ومرات الى أن يستجيب • ولكنه قد لا يستجيب برغم كثرة سؤال الولى له فى المنام ، فيعطيه الاخير علامة ، اذهب فى المكان الفلانى فسوف تجد كذا ، فى هذا المكان يجب أن تبنى لى قبرا وضريحا • واذا تقاعس صاحب الرؤيا مع ذلك ، فان الولى يمكن أن يلحق به ضررا (فى زراعته ، أو بهائمه ، أو فى أولاده ، أو فى صحته •• الخ) • بحيث يربط هـــذا الشخص بين ما أصابه وبين ما طلب منه فى الرؤيا • فيستجيب أخيرا لمـــا طلب منه ، ويرفع عنه الضرر الذى وقع عليه •

---

(18) Goldziher; Ignaz; Aus dem muhammedanischen Heiligenkult in Agypten; in : Globus; 71. Bd; 1897; S. 233 ff.

والأولياء المؤشرون أكثر ظهورا ، أو هم لا يظهرون عادة الا فى القرى والمدن البعيـــدة (خاصة فى الصـــعيد) • لانه من الصعب أن نتصور أن يظهر الحسين لرجل فى مصر القديمة ، ويطلب منه أن يبنى له ضريحا ومقاما فى ذلك الحى • ولكننا نجد عشرات القرى فى ريف مصر التى ظهر فيها الحسين لأشخاص عاديين وطلب منهم اقامة ضريح له فيها • أما الحالات التى يكون فيها الولى المؤشر انسانا عاديا فانه يمكن أن يظهر فى أى مكان • ولو أنه يظهر عادة فى منطقة معروف فيها ، أو لواحد من عشيرته وأهله •

وقد يستجيب الانسان صاحب الرؤيا ويشرع فى بناء الضريح الذى طلبه الولى المؤشر بنفسه وعلى نفقته • ولكنه لن يستطيع ذلك بالطبع اذا كان فلاحا فقيرا • أما اذا كان من أبناء العائلات الميسورة فانه ينشئه ويتعهده بالرعاية • وكثير من أضرحة المؤشرين التى شاهدناها فى رحلاتنا الميدانية ممـــا تولى انشـــاءه ورعايته أفراد من العائلات الميسورة • أما بالنسبة للانسان الفقير فاما أن يلتمس معونة من أسرة غنية ، أو يقوم أتباع احدى الطرق الصوفية التى يتبعها هذا الفقير ببنـــاء هذا المقام ، أو المساعدة فيه(١٩) •

ومع أن تراث الأولياء المؤشرين مزدهر فى قرى الصعيد بصـــفة

---

(١٩) لعل هذه الشواهد توضح لنا بجلاء أن الاقطاع الريفى والطبقات المتعاونة والمتحالفة معه ، وكذلك بعض الطرق الصوفية ، قد لعبت وما تزال تلعب دورا بارزا فى تفريخ أولياء جدد وفى تدعيم هذه الممارسات الشعبية ، والتمكين لهـــا ونشرها بين الناس . ورأيى أن فهم ديناميات هـــذه العملية يكشف لنا أحد السبل الفعالة فى علاج « مشكلة الاولياء » وخاصة الجوانب الســـلبية التى تمـــلأ حياة الناس من تذرع بهم والدعوة لهـــم ، والحلف بأسمائهم ، والنذر لهم .. الخ .

والمؤلف وهو يشير هذه الاشارة لا يخرج عما الزم به نفسه فى مقدمة الكتاب من تقديم عرض موضـــوعى للمعتقدات الشعبية المصرية والممارسات المرتبطة بها . لأنه يؤمن أن الانتفاع بثمرة هذه الدراسات يجب أن يكون من واجب المسئولين عن رسم السياسة الاجتماعية ، وليس من مسئولية دارس المجتمـــع .

خاصة ، الا أن جولد تسيهر Goldziher يشير الى عديد من مقامات مثل هؤلاء الاولياء فى مختلف أنحاء مصر • فيشير الى قبة منشأة بالقرب من باب زويلة بالقاهرة تكريما للست رقية بنت سيدنا على بن أبى طالب• كما يذكر تفاصيلا ومعلومات عن مقام شهير للشيخ عبد القادر الجيلانى فى ادفو (وقبره الحقيقى فى بغداد) •

وقد تعرفنا على مجموعة من هؤلاء الأولياء فى دراستنا لقرية غرب أسوان النوبية ، التى أجريت بتكليف من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٧٣ • حيث وجدنا مجموعة من الأولياء الذين أقيمت لهم مجموعة من الأضرحة المنتشرة فى حقول القرية • ولا يعرف الناس تاريخ هؤلاء الأولياء • وانما يقـــرر الاخباريون أن كل ولى منهم قد ظهر لصاحب الحقل الموجود فيه ، وقال له أنه مدفون هنا أى يؤشر له ، فيقوم صاحب الحقل ببناء ضريح للشيخ (ولذلك يسمون بالمؤشرين) • ورغم وجود عدد من هذا النمط من الأولياء غير أن أشهرها على الاطلاق ضريح الشيخ عبد الله والشيخ ابراهيم • والواقع من يشاهد قبر الولى منهم لا يعتقد أنه ذائع الصيت ، فهو قبر صـــغير موجود داخل خيمة من الجريد والسعف وقد يوجد دون خيمة • وبعض هـــذه المقابر تهدم وأصبح مجموعة من الأحجار • واللافت للنظر أن أحد هذه الأحجار التى شاهدناها فى قبر الشيخ ابراهيم عليه نقوش يرجح أن تكون نقوشا مصرية قديمة أو قبطية •

ودرجة الاعتقاد فى هذا النمط أقل بكثير من الأولياء الذين لهم تاريخ وقصص (أسطورية) تحكى مولدهم ونشأتهم وكراماتهم وطريقة دفنهم وقدرتهم على علاج المرض وغير ذلك ، ولا تنسج حوله ســـوى حكايات بسيطة تدور كلها حول ظهوره لبعض الأشخاص فى المنـــام ، كأن يذهب الى شخص « ليخنقه » اذا ما تلفظ بكلام يسىء اليه • أو يرفض الشيخ أن يبنى له مقاما ، فعندما يقوم صاحب الحقل ببناء أى شىء فانه يقوم بهدمه • ولا توجد أى تفاصيل عن حياة الولى الأولى

أو كراماته أثناء حياته • كما أن الناس لايواظبون على زيارة هذا النمط من الأولياء مثلما يواظبون على زيارة الشيخ البسطامى أو الشيخ نجم وأولاده • كما يوجد الكثير ممن ينكر على هذا النمط من الأولياء ولايتهم • بل أننا قابلنا صاحب الحقل الذى يوجد به الشيخ ابراهيم فقال : « ان الذى يقال عليه ولى ما هو الا مجموعة من الأحجار الأثرية، وأنه قام بزراعة الجزء الذى كانت فيه هذه الاحجار » ، وان كان هو نفسه لم يستطع أن يتخلص من هذه الاحجار بعيدا عن الحقل • فكومها داخل الحقل فى مكانها الاساسى • ولايقام لهذا النمط من الاولياء مولد بل يمكن زيارة أى منهم فى أى وقت ، وبالتالى لايقدم لهم أى نوع من الأضاحى والنذور(٢٠) •

٨ ــ حكاية الولى - نموذج : ــ

سنحاول أن نستعرض فيما يلى بعض نماذج متنوعة لحكايات الاولياء ، وجميعها مأخوذة من دراسات أو تجميعات سابقة • وسيجد القارىء بعض النماذج لحكايات الأولياء مما جمعناه بأنفسنا فى الفصل الثالث من هذا الباب عن « الخبرات الميدانية فى دراسة المعتقدات الشعبية » • ونحكى فيما يلى قصة (أسطورة) سيدى عبد القادر الجيلانى ، كما أوردها كريس ، نقلا عن محمد على عينى(٢١) •

جيلان هو اسم منطقة خصبة يبلغ طولها نحو ٢٢٥ كم وعرضها حوالى ١٠٠ كم وتقع بين بحر قزوين واقليم مازندران فى ايران • ومحل ميلاده الحقيقى اسمه « نيف » ، أما لقبه جيلانى فقد أخذه عن جده لأمه •

---

(٢٠) د. محمد الجوهرى ، الانثروبولوجيا . أسس نظرية وتطبيقات عملية . الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .

(٢١) انظر ، كريس ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٢ ــ ١٤ نقلا عن :

Mehmed Ali Aini; Un Grand Saint de l' Jslam; Abd al Qadir al-Gilani; 1077-1166; 470-561 d. H; pp. 7-257.

كانت أمه وقت مولده فى الستين من عمرها • وهو أمر لا يحدث الا بين النساء القرشيات • وهناك عدد من الاساطير والنوادر التى أبداها أو وقعت له فى فترة طفولته • وقد أظهر بعض كراماته قبل أن يولد بزمن بعيد ، اذ ظهر لامه فى صورة صقر وحماها من الاغتصاب وهى فتاة لم تتزوج بعـــد •

وكان مولده فى شهر رمضان ، ولم يكن يأخذ ثدى أمه الا بعـد المغرب • وسرعان ما عرف هذه القصة أهل « نيف » مسقط رأسه ، فكانوا اذا شق عليهم أن يعرفوا هل حل أذان المغرب أم لا (بسبب السحب الكثيفة التى تحجب السماء) يلجأون الى أم الرضيع — الجيلانى — ويسألوها اذا كان ابنها قد بدأ يرضع منها أم لا • وبعد أن كبر قليلا كانت الأرواح تحرسه فى غدوه ورواحه ، وتصحبه الى المدرسة •

وحدث له وهو فى السابعة عشرة من عمره أن تحدث مع ثور (حيث كان قادرا على مخاطبة الحيوانات) وعلم من الثور أنه ليس مهيأ للأعمال العادية التقليدية التى يمارسها سائر الناس • بعد تلك الواقعة جرى وهو شديد الاضطراب عائدا الى البيت ، وشاهد فى تلك اللحظة جبل عرفات ، والحجاج وهم وقوف به •

وفى الثامنة عشرة من عمره رحل الى بغداد والتحق باحدى المدارس • وقبل رحيله الى بغداد وعد أمه أنه لن يكذب فى حياته أبدا • وفى الطريق الى بغداد تعرضت القافلة التى كان فيها لقطاع الطرق • فأخبر الجيلانى رئيس العصابة التى سطت عليهم أن معه أربعين دينارا ذهبيا مخبأة فى حاجاته • وعلى أثر هذا الاعتراف التلقائى ندم رئيس العصابة هو ومن معه ، وقرروا أن يكفوا عن حياة النهب ، ويبدأوا حياة جديدة مستقيمة •

ولما أراد أن أن يترك بغداد بعد حين ، أظهر كرامة جديدة ، اذ وقع على الأرض ، وعجز عن المشى ، وسمع من يأمره بأن يبقى فى بغداد لكى يكمل رسالته • وفى عام ٤٨٨ هجرية كان قد وصل الى بغداد ، وفى عام ٥٢١ بدأ عمله مدرسا فى أحد مدارسها •

وعاش الجيلانى حياته متصوفا زاهدا متعبدا ، لم يكن يشرب الماء أبدا ، ولم يأكل سوى لحوم الحيوانات النحيفة العجوزة • وقبل موته بوقت قصير عينه الرسول بنفسه قطبا • وكان بعض زملائه من العلماء الحاسدين قد أراد امتحانه ، ولكنهم ما أن ظهروا أمامه حتى شلت ألسنتهم وعجزوا عن الكلام • ولكن الجيلانى أظهر كرامة أخرى فى نفس الموقف اذ استطاع أن يحدد لهم الاسئلة التى كانوا ينوون توجيهها اليه (رغم أنهم كانوا عاجزين عن النطق بها) • وفوق ذلك قام هو بالاجابة عليها جميعا• وقد أسس له مريدوه أثناء اقامته فى بغداد زاوية (أو ربال) • وكان ذلك فى عام ٥٢٨ ، ومنذ ذلك التاريخ ظل الجيلانى يعيش فيها حتى موته •

وعندما كان الاغنياء يقدمون له الهدايا (النذور) كان يستطيع أن يحولها ، أو هى تتحول فى يده الى أشياء أخرى عجيبة • فذات مرة أهداه الخليفة تفاحا ، وعندما بدأ يفتح احداها تحولت فى يده الى عفن ودم • وفى مرة أخرى حول الذهب فى الكيس الى دم أيضا عندما ضغط عليه بيده ضغطة شديدة • أما هدايا الفقراء فكان يقبلها ويسعد بها •

ويقال أن الجيلانى لم يكن ينام الليل أبدا • ولكى يبعد النعاس ، كان يقضى الليل واقفا على قدم واحدة ، ممسكا بحلقة فى الحائط لكى لا يفقد توازنه نتيجة هذا الوضع • وكان ذكره عبارة عن ترديد أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين • وكان يأتى معجزات بجسمه ، فكان يطول ويقصر بشكل خارق ، كما كان يستطيع أن يحجب نفسه عن أعين الناس وهو بينهم •

وكان يقضى ثلثى الليل فى الذكر بأسماء الله الحسنى ، على حين يقضى الثلث الباقى فى الصلاة • وقبيل الصبح كان يمر بفترة صمت عميق ، حيث يتردد عليه ضيوف غير منظورين • وفى بعض الاحيان كان يطير الى الكعبة أثناء الليل ، حيث يصلى ويطوف ، ثم يعود الى زاويته من جديد فى نفس الليلة • وكان يعرق فى الشتاء فى البرد القارس ، مع أنه لم يكن يرتدى سوى قميص واحد • وفى الصيف لم يكن الذباب

يقف على جسمه أبدا • وكانت الناس تسمع صوته وهو يعظ من على مسافات بعيدة جدا • وقد استطاع وهو فى مكانه أن يرشد راعيا فى الصحراء الى أربع جمال فقدت منه ، ويستدل عليها •

وفى أثناء القائه أحد دروسه الدينية شاهد الجمع الذى كان يستمع اليه فرسانا من نور بيضاء ناصعى البياض يركبون خيولا من نور أيضا • وقد استطاع أن يهدى الى التوبة أحد الرجال لم يكن يؤمن بكراماته • كما استطاع من ناحية أخرى أن ينزل عقابا شديدا — وذلك بعد موته — بأحد رعاة الابل كان قد سرق بعض النقود والملابس من أحد الحجاج ، كان هذا الحاج قد نذرها للشيخ الجيلانى ومسجده •

وقد قام الجيلانى طوال حياته بشفاء عديد من الامراض ، كما استطاع أن يحيط بأسرار كثير من الناس الخاصة ، وأظهر كرامة التواجد فى أكثر من مكان فى نفس الوقت • ولم تخل قائمة معجزاته من كرامة حربية حيث يروى أنه استطاع انقاذ بغداد من حصار السلاجقة لهـا ، وتخليصها ونصرتها ، وكان ذلك فى عام ٥٥٢ هجرية •

وبعد موته أنشىء له ضريح ضخم غاية فى الأبهة والعظمة فى بغداد ، غير أن الشيعة حطموه بعد فتحهم بغداد • وقد أعيد بناء هذا الضريح بعد ذلك بفترة طويلة • ويقال أن سليمان الكبير هو الذى جدده بعد أن فتح بغداد فى عام ١٥٣٤ ميلادية • ولما احتل الايرانيون بغداد مرة أخرى بعد ذلك قاموا بتدميره من جديد • ولكن السلطان مراد الرابع قام باعادة بنائه مرة أخرى فى عام ١٦٣٨ م •

أما عن نشاط الجيلانى الصوفى فى حياته وبعد وفاته فيحكى العينى أنه كان يشرف فى حياته على مدرسة وعلى رباط • وقد أسس الطريقة الصوفية المعروفة باسمه : القادرية • وهى تعرف ثلاث مستويات من الترقى والتقدم فى اكتساب المعرفة وامتلاك أسرار « الطريق » •

و « المرشد » هو الذى يقبل « المريد » فى الطريقة • والمرشد

يقوم نيابة عن الله ورسوله بأخذ العهد على المريد عن طريق المصافحة • وهناك سبع مراحل لعملية القبول فى الطريقة ، يتحتم على المريد أن يردد فى كل مرحلة منها أفكارا معينة :

١ — لا اله الا الله	١٠٠ر٠٠٠ مرة
٢ — يا الله	١٧٨ر٥٨٦ مرة
٣ — هو	٤٤ر٦٠٠ مرة
٤ — حق	٢٠ر٠٩٢ مرة
٥ — الحى	٩٣ر٤٢٠ مرة
٦ — قيوم	٧٤ر٦٤٤ مرة
٧ — قهار	١٠ر٠٠٠ مرة

وتورد بعض الكتب تلك الافكار بشىء من الاختلاف البسيط فى الاسم المذكور أو فى عدده ، فالمرحلة الخامسة قد يردد فيها اسمه تعالى واحد بدلا من الحى • والمرحلة السادسة قد يردد فيها اسمه تعالى عزيز بدلا من قيوم ، والمرحلة السابعة قد يردد فيها اسمه تعالى ودود بدلا من قهار •• وهكذا • وهى تفاصيل لا يهمنا الاحاطة بها ولا مناقشة كافة تفاصيلها • ولكننا نكتفى بعرض الاتجاه العام للموضوع ، واستجلاء معالمه الرئيسية دون التطرق الى النقاط الخلافية •

وتحكى مختلف جوانب قصة أو أسطورة الجيلانى عددا من الامور الهامة ، نذكر منها العلاقة بين الولى والجن (انظر دراسة مستقلة متكاملة عن الجن والمعتقد الشعبى المصرى فى الباب الرابع من هذا الكتاب) • فرأى البعض أن الجن المؤمنين يمكن أن يعملوا فى خدمة الولى • وهذا هو سر القدرات الخارقة العجيبة التى يتمتع بها الاولياء ، ومبرر الاضاحى والنذور والهدايا التى تقدم اليهم • تلك هى الخطوط العامة للعلاقة ، ولكن هذه العلاقة تكتسب بعدا جديدا وعمقا خاصا فى حالة عبد القادر الجيلانى الذى يسود اعتقاد فى المغرب (وفى بلاد عربية

أخرى) أنه « السلطان » ، ليس فقط سلطان كل الاولياء ، وانما كذلك سلطان جميع الجن(٢٢) •

٩ ــ أضرحة الأولياء :

يمكن القول بصفة عامة بأن تكريم الاولياء مرتبط على الدوام بالضريح الذى يدفن فيه الولى ، أو يعتقد أنه مدفون فيه أو الذى طلب الولى نفسه بطريقة أو أخرى اقامته لتكريمه (وهم الاولياء المؤشرون)• ولا يصح أن نتصور الضريح فى ضوء معرفتنا بأضرحة كبار الاولياء كالسيدة زينب أو الحسين ••• الخ • اذ من الطبيعى أن يتفاوت الضريح من حيث شكله الخارجى ، وزينته ، وفخامته ، ومواد بنائه ، وحجمه ••• الخ تبعا لمدى انتشار تكريم الولى (أهميته الشعبية ــ بصرف النظر عن أهميته الحقيقية) ، وامكانيات أهل المنطقة وزوار الولى وغير ذلك • ففى بعض الاحيان لا يزيد الضريح عن بعض الاحجار المتراصة التى تدل على وجود قبر تحتها أو بجوارها ، وأحيانا يكون الضريح عبارة عن بناية صغيرة من الطوب اللبن ••• الخ •

وقد أشارت أغلب الدراسات السابقة عن الاولياء فى المنطقة العربية الى أن وجود قبر لولى بلا ضريح يعد أمرا شديد الندرة • واذا حدث وصادفنا قبرا لاحد الاولياء بدون ضريح مقام عليه فمعنى ذلك أن الشخص المدفون قد « دخل الولاية » بعد موته ودفنه ، أى أنه دفن انسانا عاديا ثم ظهرت امارات ولايته بعد دفنه • والاحتمال الاخر أن يكون فردا من أسرة فيها ولى سابق ، فهو فى الحقيقة ليس وليا بمعنى الكلمة (وان كان يزار ويدعى له ، وأحيانا يقام له مولد) ، ولكنه ليس فى الوقت نفسه انسانا عاديا • ويكون هذا القبر على مقربة من الولى الاصلى الشهير •

---

(٢٢) انظر :

Edward Westermarck; Ritual and belief in Marocco; London; 1926; Vol. I; p. 389.

نقلا عن كريس ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٤ .

والاحتمال الثالث أن تكون تلك المقابر مقامة فى المجتمعات البدوية (خاصة المصرية أو نظيرتهـا فى الشام) حيث يؤشر للقبـر ببعض الاحجار • والاحتمال الاخير لتفسير هذا الوضع ـ وجود قبر بلا ضريح ـ أن يكون الولى نفسه قد رفض بشدة تشييد ضريح له • فتحكى أساطير بعض الاولياء أن الناس كانوا يشيدون جانبا من الضريح فى الصباح ، ثم يأتى المساء فيتحطم الجزء الذى أنجزوه ، ويصبحون فى اليوم التالى حيث يجدون كل ما أقاموه مهدما • وكان الولى يظهر أحيانا للناس (فى الرؤيا) ليثنيهم عن اقامة الضريح ، ويخبرهم بأنه هو الذى يقوم بهدم ما شيدوه أثناء النهـار •

١٠ ـ موقع الضريح :

تحتل الاضرحة مواقع متفاوتة فى طبيعتها أشد التفاوت • ففى بعض الاحيان يقع الضريح داخل القرية فى وسطها ، أو على مدخلها ، أو بالقرب منها • وفى أحيان أخرى يقع الضريح على بعض المواقع المرتفعة ، كأحد التلال القريبة ، أو فوق أحد الجبال القريبة ، والنادر على أى حال أن نصادف ضريحا فى بطون الأودية •

كما أن هناك علاقة مكانية أحيانا بين موقع ضريح الولى ومقابر القرية (الجبانة) • وهناك دائما احتمالان وحيدان لتفسير ذلك ، اما أن تكون الاضرحة قد شيدت وسط جبانة قائمة فعلا أو قريبا منها ، أو أن ضريح الولى كان قائما فى الاصل ثم تكاثرت حوله المقابر بعد ذلك تبركا ونشأت الجبانة حول الضريح • وهناك فى المعتقد الشعبى ما يفسر لنا الاحتمال الاخير ، اذ يعتقد الناس أن الشخص المدفون على مقربة من أحدالاولياء يحظى ببركة هذا الولى • كما أن الدفن بالقرب من الولى ينطوى على « فائدة » أخرى ، وهى أن الجبانة فى حالة وجود الولى بها تكون فى حمايته ، ولا يجرؤ أحد على تدنيسها أو الاعتداء على أحد مقابرها بأى صورة من صور التعدى التى يخشى الناس منها على موتاهم •

والضريح هو الاسم الفصيح للكلمات الاخرى : مقام ، أو قبة ،

خاصة وأن قبة قد تطلق على أضرحة بلا قباب ، لانها ليست مقصودة بحرفيتها ، ولكن بما تثيره من امارات التكريم(٢٣) • وهناك ألفاظ أخرى تدل على الضريح ، وان كانت أقل شهرة فى البيئة المصرية هى : « مشهد »، و « طربة » ، اللتان تستخدمان أحيانا للدلالة على ضريح الولى ، خاصة حين يوسع الاستخدام الشعبى مدلول « الطربة » — القبر — بحيث تشمل قبر الولى والمبنى المقام عليه •

١١ — وصف ضريح الولى :

يتخذ الضريح فى العادة شكل البناء المربع فى الغالب ، وتشيد فوقه فى أكثر الاحيان كما أشرنا قبة • والعادة أن يوجد علاوة على المدخل الرئيسى الى الضريح نافذة صغيرة (طاقة) أو عدد من النوافذ الصغيرة • وتلون جدران الضريح الداخلية والخارجية بألوان مختلفة ، قد تدخل فيها الحنة أحيانا ، والنيلة أحيانا أخرى ••• الخ •

وتزين الجدران الداخلية — والخارجية أحيانا — بأشكال متعددة متجاورة ، مكونة من مضاعفات وحدات زخرفية بسيطة نتعرف منها على أشكال : الكف(٢٤) ، أفرع النخيل ، أو أشجار النخيل فى شكلها المبسط المنمط ••• الخ • وتتركز الرسوم المشار اليها حول باب الدخول — يمينا ويسارا — وعلى الجدران الداخلية ، وعلى المبنى الذى يعلو القبر (الضريح نفسه) ، وحول المحراب (اذا كان موجودا داخل الضريح) •

وقد تشاهد عشرات الأكف المطبوعة على الجدران بعد غمسها فى

---

(٢٣) أشار جولد تسيهر الى أن لفظ « قبة » كان يطلق عند البدو على الخيمة التى تقام على قبر الشخص المتوفى حديثا ، ويقضى فيها أقاربه نحو عام تقريبا . انظر مزيدا من التفاصيل فى :

Goldziher; Jgnaz; Le Culte des ancêtres et le Culte des morts Chez les Arabes; Revue de L' Histoire des Religions; T. 10; 1884; p. 355.

(٢٤) الكف (الاصابع الخمسة المفرودة) يعبر عند المسلمين عن يد السيدة فاطمة ، وعند المسيحيين يد العذراء مريم ، ويمثل بالنسبة لليهود يد الاله يهواه . انظر ، كريس ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

الدم ، وهى على كل حال نادرة فى فلسطين ومصر ، ولكنها أكثر انتشارا فى المناطق المنعزلة من سوريا والاردن • والدم الذى تغمس فيه هذه الايدى هو فى العادة دم الاضاحى التى ذبحت عند الضريح تكريما للولى أو وفاء لنذر أو غير ذلك •

أما أشجار النخيل ذات الشكل النمطى الموحد فتتخذ فى العادة شكل خط رأسى (يرمز لجذع النخلة) ، تتفرع منه عند قمته خطوط مائلة يمينا ويسارا متوازية (ترمز للفروع) وليست أعداد تلك الفروع موحدة ، ولكنها تكون عادة مكونة من ٣ أو ٥ أو ٧ أفرع • ومعروف أن أفرع النخيل تستخدم فى مناسباب عديدة متصلة بالموت ، فى مواكب الدفن ، وعند زيارة القبور ، وفى تزيين المقـابر ••• الخ • وهى فى المعتقـد الشعبى رمزا للحياة(٢٥) • (انظر فصل النبات فى المعتقد الشعبى فى هذا الكتاب) •

ومن موتيفات الزينة أشكال الثعابين ، أو الحية (رمز الحيـاة الطويلة) ، وكذلك خمس نقط أو بقع لونية على شكل معين ، ترمز لرؤوس أصابع اليد ، ويطبعها الزائر كبصمة تدل على زيارته لقبر هذا الولى • كذلك يمكن أن نجد رسوما أخرى لاشياء متنوعة قد لايكون لها مدلول مباشر فى هذا المكان ، ولكنها معروفة الدلالة فى سياق آخر • ومن هذه الاشياء : المسجد ، والمئذنة ، والسفينة ، والزهرة ••• الخ • ونحن نعرف أن الحجاج يزينون بيوتهم بعد عودتهم من الحج ببعض الاشياء ، مما يصادفه الحاج فى رحلته كالقطار ، والطائرة ، والسيارة ، والجمل ، والمحمل وغير ذلك • وآخر العناصر التى يمكن أن نشير اليها كعناصر لتلك

---

(٢٥) أشار توفيق كنعان — كما لاحظ ذلك كريس — الى أن المعتقـد الشعبى فى بعض البلاد الاسلامية يرى أن أشجار النخيل قد خلقت من نفس التربة التى خلق الله منها آدم . ولذلك توجد بعض أوجه الشبه بين شجرة النخيل وبين الانسـان . أما باول كاله فيرى أن تفسـير المعتقـد الشعبى لاستخدام النخيل يرجع الى اعتبارها وسـيلة للوقاية من العين الشريرة او دفعا لها . انظر كريس ، المرجع السابق ، ص ٢٣ وكذلك المراجع الواردة هنـاك .

الرسوم : أسماء الله الحسنى ، وبعض الادعية ، أو الآيات القرآنيـــة ••• الخ •

ويوجد قبل مدخل المقام أحيانا كثيرة مكان صغير مبلط ، وقد يكون هذا المكان مفتوحا ومغطى بسقف نصف كروى ــ على شكل قبة ــ وهو ما يسمى رواقا • • وفى هذا المكان تفرش الحصر ، التى يتناول عليهـــا الزوار الوليمة التى تقام من ذبيحة الولى • ويوجد فى الاضرحة الكبيرة عدد من هذه القاعات التى تستخدم أثناء المولد أو المناسبات المختلفة لأغراض متعددة : كمطبخ ، أو مدرسة ، أو كمسكن لحارس الضريح ، أو مكان لمبيت الزوار ••• الخ •

وهناك بعض الاضرحة التى تقام فى مكان فسيح مفتوح ، مرتفع على أعمدة ضخمة ، ويتوسطه قبر الولى • ويحيط بالضريح سور معدنى أو مبنى • وفى نفس المكان يوجد عادة محراب • كما توجد فى نفس المكان بعض الرايات أو البيارق ، التى تكتب عليها بعض الادعية أو العبارات الدينية •

ويمثل قبر الولى بؤرة الضريح ومركزه الرئيسى • والغالب أن يوجد القبر أسفل القبة ، وبجواره أضرحة الأولياء الآخرين الاصغر أو أقارب الولى ، اما غير بعيد عنه ، أو فى مكان منفصل عن القاعة الرئيسية • وهؤلاء الأولياء الاصغر شأنا قد يكونون زوجة الولى الرئيسى ، أو أقاربه ، أو أولاده • وبالنسبة للقبر نفسه فتصدق نفس قواعد وأسس البناء المتبعة فى تشييد القبور فى المنطقة الموجود فيها الضريح • وان كان القبر نفسه يمكن أن يصنع من الخشب ، على خلاف الموجود فى تشييد المقابر العادية • ويتخذ القبر فى اتجاهه وارتفاعه وعرضه نفس المقاييس والاعتبارات التى تراعى فى انشاء القبور العادية • خاصة ما يتصل باتجاه الميت نحو القبلة ، وهو ما يؤثر فى اتجاه القبر •

ويغطى القبر نفسه (الشاهد) بستارة من القماش ، تكون خضراء اللون عادة ، ومزينة ببعض الآيات القرآنية وأســـماء أعلام الاســـلام

(خاصة أسماء الخلفاء الراشدين) وأهل البيت ... الخ • وعلى طرف شاهد القبر من ناحية الرأس يرتفع حجر أو رأس للقبر ، يغطى أيضا بقماش من نفس اللون والنوع الذى يغطى به الشاهد نفسه ، ويأخذ فى النهاية شكل العمامة • وفى بعض الاحيان يوضع فوق هذا الجزء المرتفع عمامة حقيقية توضع فوق عمود خشبى مرتفع فوق شاهد القبر ، وكل ما يميزها أنها تكون أكبر من العمامة الحقيقية بدرجة ظاهرة • وفى أحيان أخرى ترتفع فوق أركان الشاهد الاربعة أربعة أعمدة فوق كل منها كرة معدنية ، أو رأس معدنى صغير مزين ببعض النقوش ، وقد تكون أحيانا مصنوعة من الخشب أو غير ذلك من المواد •

على أن الملاحظ فى بعض الاضرحة البدائية أو البسيطة أن يكون شاهد القبر صغيرا بشكل ملحوظ ، خاصة عندما يكون هذا القبر خاليا من جثمان الولى نفسه ، ويكون مجرد رمز للولى فقط • ونصادف تلك الظاهرة بشكل خاص فى أضرحة الأولياء المؤشرين ، أو الاضرحة التى أقيمت حيث يعتقد أن الولى قد توقف وأقام بها لبعض الوقت •

أما بالنسبة لكبار الاولياء فان الضريح يكون محورا لمسجد كبير ، يكون مرتبطا بالقبر الخاص بالولى • وفى هذه الحالة يكون القبر من حجم ضخم غير عادى ، ومحاطا بسور ضخم من المعدن أو الخشب المشغول (مقصورة) • وفى هذه الحالة لا يوجد القبر — أو المقصورة — فى وسط المسجد ، وانما تحت قبة خاصة فى ركن من أركان المسجد • وأضرحة كبار الاولياء أغلبها من هذا النوع •

١٢ — الاشجار المقدسة :

ينصرف لفظ القداسة هنا الى التكريم الشعبى ، بعيدا بطبيعة الحال عن أى معنى دينى رسمى للتقديس • ويلاحظ أن كثيرا من أضرحة الاولياء فى كثير من بلاد العالم الاسلامى تحتوى على بعض الاشجار المقدسة ومن الاشجار المقدسة التى تحظى بمكانة خاصة ضمن هذا النوع : أشجار السنديان ، والبلوط ، والتين ، والخروب ، والزيتون ، والتوت ، والسدر •

ونجد منها أيضا ، وان كان بدرجة أقل ، الصنوبر ، والنخيل ، ... الخ .

وتتخذ الاشجار المقدسة هيئة شجرة واحدة قائمة بذاتها ، أو مجموعة متجاورة من الاشجار ، وان كان الوضع الاول هو الارجح . ويقال فى تفسير قداسة الشجرة المفردة المقدسة تبريرات وحكايات كثيرة، منها مثلا أن أصدقاء الولى قد زرعوا عصاة فى هذا المكان بعد موته ، وأن هذه العصاة كبرت وتحولت الى شجرة مزهرة .

واذا كانت الشجرة المقدسة مثمرة ، فانه يكون من حق أى شخص يمر بها أن يقطف من ثمرها ويأكل ، ولكن لا يأخذ معه منها شيئا . أما من يتعدى عليها بقطع فرع من فروعها أو الاضرار بها قبل أن تثمر على أى صورة فان الولى يتكفل بعقاب الجانى وتأديبه . والشائع أن يقرأ الشخص الذى يأكل من ثمار هذه الشجرة الفاتحة على روح الولى المجاور لها . وهناك ظاهرة نادرة ، ولكنها واردة ومفهومة فى ضوء بعض ملامح المعتقد الشعبى ، هو أن يعتقد أن مثل هذه الشجرة مسكونة بأرواح شريرة . ذلك أن القداسة قد تخلع صفة الجذب على الشىء فيندفع اليه ويتبرك به ، كما قد تخلع عليه صفة التنفير والتخويف فيخشاه الناس ويصبح شيئا يجب تجنبه (تابو) .

والاشجار التى نتكلم عنها حتى الآن هى غالبا تلك التى ترتبط بضريح معين لشيخ أو شيخة ، أو ترتبط بعين أو بئر ، أو مكان مقدس لاى سبب آخر . وفى هذه الحالة تتلقى الشجرة المقدسة كافة مظاهر التكريم الذى يتلقاه الولى العادى ، أو أغلبها على الاقل . بل اننا نجد أن الولى المجاور لا يكون له اسم علم محدد ، وانما يطلق عليه اسم الشجرة القائمة فى ضريحه(٢٦) .

---

(٢٦) يحكى توفيق كنعان عن أمنا شجرة الزيتون ، أو أمنا شجرة الغار Lorbeer .. الخ . انظر :

Canaan; T; Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine; London; 1927; p. 69 ff.

نقلا عن كريس ، المرجع السابق .

ويقسم ياوسين Jaussen الاشجار المقدسة الى ثلاثة مجموعات ، مع ضرورة مراعاة انسياب الحدود بين هذه الفئات الثلاث ، لان التقسيم يستهدف التوضيح وتيسير فهم الظاهرة ، ولكن الواقع يتصف دائما بقدر أكبر من المرونة والتفاعل والحيوية • وهذه الفئات الثلاثة هى :

١ — الاشجار المقدسة التى ترتبط بضريح ولى معين على نحو يمثل فيه الولى محور التكريم وبؤرته ، ولا يزيد دور الشجرة فى هذه الحالة عن كونها مظهرا من مظاهر ولاية الولى ، أو وسيطا فى عملية التكريم •

٢ — الاشجار المقدسة التى ترتبط بضريح أحـد الاولياء ارتباطا وثيقا ، بحيث أن الولى أو روحه لا تكون لها أى فاعلية أو تأثير الا من خلال الشجرة • وفى هذه الحالة تظل الرابطة بين الولى والشجرة شديدة القوة، بحيث يصبحان شيئا واحدا تقريبا ولايكون للولى وجود الا بالقرب من الشجرة ، والعكس بالعكس •

٣ — الاشجار المقدسة (أو مجموعات الاشجار) التى لا ترتبط بأى ولى معين ، وتكون بركتها كامنة فيها ذاتها ، لا تلتمسها من أى مصدر آخر • غير أن الحقيقة فكرة الاعتقاد بوجود روح للشجرة (مستمدة أصلا من وجود روح للعناصر الطبيعية بصفة عامة) تجعل الناس يعتبرون الشجرة « وليا ما » ، أو وليا مجهولا أو غير محدد باسم أو صفة معينة•

١٣ — العيون والآبار المقدسة :

كذلك كثيرا ما توجد بعض العيون والآبار داخل الاضرحة أو على مقربة منها ، وفى بعض الاحيان قد يكون المكان خاليا من أى ولى ، ولا يكون هناك سوى العين أو البئر كموضوع وحيد لمظاهر التكريم المختلفة • ومن هنا لا تختلف علاقة العيون والآبار بالولى عن علاقة الشجرة المقدسة بالولى ، على نحو ما أوضحنا فى الفقرة السابقة •

أما فى حالة وجود البئر أو العين بجوار قبر الولى ، فيعتقد أحيانا

أن روح هذا الولى تسكن تلك البئر ، الامر الذى يقترن بوجود بعض الظواهر أو الامارات فوق الطبيعية ، حيث يصدر عن البئر (حسب التصور الشعبى) أصوات أنغام معينة ، أو بعض الاضواء ... الخ • وقد يسكن البئر شيخ أو شيخة يشتهر عادة بدرجة رفيعة فى مراتب الولاية ، وقد يظهر فى البئر بعمامته البيضاء ، أو الحمراء أو الخضراء • وكما لاحظنا من قبل ، وكما يمكن أن نلاحظ دائما ، قد يعتقد أن البئر ليس مسكونا بولى معين ، ولكنه مسكون بجنى ، أو روح شريرة ، تبتلع الناس أو الاشياء • وفى بعض الاحيان يكون الانسان الذى يقترب من البئر أو يقع فيه موضوع شد وجذب بين قوى الخير (قوة الولى) وقوى الشر (قوة الجن الشرير)، بحيث يتصور أنه لو جذبت روح الجنى الانسان الى البئر ، فان روح الولى هى التى تنقذه من الغرق ... وهكذا • كما أن الولى أو الروح التى تسكن البئر تسمع أدعية الناس المتعبدين قرب هذه البئر • ومن الطبيعى أن مياه مثل هذه الآبار تستخدم فى علاج كثير من الامراض وتخفيف الكثير من الآلام وليس هنا مجال للخوض فى تفاصيل هذه الامور ، حيث سيرد بعضه فى فصل الطب الشعبى ، أو فى مواقع أخرى من هذا الكتاب •

وفى أحيان غير قليلة يرتبط ضريح الولى بوجود كهف طبيعى أو صناعى • وقد يوجد قبر الولى داخل الكهف نفسه ، بحيث يبنى المقام نفسه فوق الكهف ، أو فى الطريق الى القبر أو فى مكان قريب من القبر • والعادة أن يستمد مثل هذا الكهف قداسته من علاقة بينه وبين الولى أثناء حياته ، حيث يعتقد مثلا أن الولى كان يقيم فيه أو بالقرب منه ، أو يقضى فيه خلوته التى تعبد فيها ... الخ • وفى بعض الاحيان يمكن أن نصادف كهفا مقدسا بلا ضريح أو ولى ، حيث يكتسب صفة القداسة لوجود حيوان أو كائن مقدس ، كثعبان مثلا أو شىء من هذا القبيل • أو يكتسب الكهف قداسته لان وليا معينا يظهر فيه ويمارس بعض كراماته أو يقدم علاجا أو خدمة لزواره •

١٤ ــ الاحجار المقدسة :

ونشير فى النهاية الى بعض الاضرحة التى نصادف فيها بعض الاحجار المفردة أو المتراصة على نحو معين فى هيئة بالذات ، أو دون أن تتخذ هيئة محدودة • وقد يطلق على هذه الاحجار اسم « مشهد » ، أو اسم ولى ، أو مجموعة من الاولياء ، أو اسما عاما غير محدد •

والاحجار المقدسة ليست بالامر الغريب على المعتقد الشعبى فى البلاد الاسلامية ، لان تراث تلك المجتمعات القريب والبعيد ملىء بعشرات الصــور والنماذج الدائرة حول تقديس الاحجــار ، أو استخدامها فى مناسبات لها صفة القداسة • ولو أنه تجــدر الاشارة الى أن التراث التقليدى لشعوب أخرى كثيرة يعرف دائما العــديد من صور تقــديس الاحجــار •

١٥ ــ موكب الولى :

من الظواهر التى نلاحظها على موالد كبار الاولياء ، والاولياء العاديين أحيانا ، أن يرتبط الاحتفال بمولدهم بموكب كبير ، يضم أبناء الطوائف المختلفة ، يحملون بيارقهم ، وأحيانا سفينة الولى ، والجمال المحملة ببعض الاشياء ، وزوار المولد الراجلين ، وغير ذلك • ويشبهه البعض بموكب المحمل ، ويقارن هؤلاء بين رحلة المحمل الى الكعبة ، ورحلة الموكب انطلاقا من ضريح الولى أو انتهاء اليه(٢٧) •

ويحمل أثناء هذا الموكب صندوق خشبى كبير يغطى بقماش أو ستارة كبيرة ، وينقل على ظهر جمل ، أو تحمل سفينة كبيرة لنفس الغرض • وعلى مدار العام ــ وانتظارا للموكب ــ تحفظ سفينة الولى أو هــذا

---

(٢٧) انظر مزيدا من التفاصــيل والشواهد عنــد كريس ، المرجع السابق ، ص ٢٧ وما بعدها ، وكذلك فى الفصل الثانى ، ص ٥٣ وما بعدها ، وكذلك حديثا مفصلا عند :

Klunzinger; C. B; Bilder aus Oberagypten; Stuttgart; 1878.

خاصة فى حديثه عن موكب سيدى أبو الحجاج الأقصرى .

الهيكل الخشبى الفارغ داخل الضريح فى مكان منعزل غير مطروق ، أو على مقربة من الضريح • ثم يتم اخراجه قبيل المولد ، ويزين ، وذلك بعد تغطيته بالقماش المزين (وأحيانا يكون هذا الفضاء هو نفسه الستارة التى يغطى بها قبر الولى طول العام) •

١٦ — سفينة الولى :

كانت السفينة ومازالت تمثل أحد العناصر الطقوسية الهامة فى المعتقد الشعبى المصرى • حيث نلاحظ أن أغلب الاضرحة الكبيرة نوعا ، والتى يقام لاصحابها مولد سنوى ، تملك سفينة (أو كانت تملك مثل هذه السفينة حتى عهد قريب) • وتزين تلك السفينة بأنواع الزينات المختلفة ، وتوضع على عربات وتسير كموضوع رئيسى فى موكب مولد هذا الولى • ولو أن الملاحظ اليوم بصفة عامة أن عمليات التحديث التى طرأت على الثقافة المصرية قد عدلت من هذه الممارسة على نحو أو آخر • ويمكن أن نتبين أبعاد هذا التغيير من استعراض الدور الذى كانت تلعبه السفينة فى الاحتفالات فى الماضى ، وما يجرى عليه الامر فى الوقت الراهن •

وسفينة الولى صغيرة الحجم نسبيا ، ويتم حفظها فى غير أيام المولد فى داخل الضريح أو قريبا منه • ويتردد بين الناس الاعتقاد بأن تلك هى سفينة الشيخ (الولى) وأنه يقوم بواسطتها برحلاته البحرية ، خاصة رحلاته فى النيل • ويستنتج كريس وغيره من الدارسين من تلك التفسيرات لوظيفة السفينة أنها توحى بأصل فرعونى مصرى قديم(٢٨) • والموالد التى تلعب فيها السفينة مثل هذا الدور البارز فى الموكب — وهى بذات الحجم الطبيعى المستخدم فى الملاحة النيلية — هى مولد سيدنا أبو الحجاج (فى الاقصر) وسيدى عبد الرحمن (فى قنا) •

ولما كانت السفينة تعد من الاشياء الخاصة بالولى والمخصصة

---

(٢٨) انظر كريس ، المرجع السابق ، ص ٣١ — ٣٢ ، انظر قائمة المراجع عن دراسات عن تاريخ السفينة ومكانتها فى المعتقدات الدينية والشعبية .

لاستخدامه أو للاحتفاء به أو لكليهما معا ، أصبح من الطبيعى أن تدخل السفينة كأحد النذور التى تقدم الى الولى فى المناسبات المختلفة • وقد عثر كريس فى أحد الاضرحة الصغيرة فى مدينة الاقصر على ثلاث سفن صغيرة الحجم مصنوعة يدويا لكن بطريقة يبدو فيها عدم التخصص والبعد عن تجويد الصنعة ، معنى ذلك أنه صنعها أحد محبى الشيخ دون تخصص سابق فى هذه الصناعة ، ولكن بدافع من رغبته فى اهدائه سفينة توضع فى ضريحه • وكانت القوارب الثلاثة مصنوعة من جسم من الصفيح المطلى باللون الاخضر ، ترتفع فى وسط كل منها صار من الخشب وينطلق منه قلع من القماش الابيض ، بحيث أصبحت هيئتها فى النهاية شديدة الشبه بالقارب الذى يجرى فوق صفحة ماء النيل كل يوم ، ولكن بشكل صغير ومبسط • (انظر كريس ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ، وكذلك الصورة رقم ٧٨ عنده) •

١٧ ــ الاضاحى والنذور :

من أهم الاضاحى التى تقدم للولى أو النذور التى تنذر له شعر الانسان ، سواء كان بالغا أو طفلا صغيرا(٢٩) • ويرى البعض أن المعنى الاصلى (!) للتضحية بالشعر ربما كان الرغبة فى تدعيم وتجديد قوة الانسان كما أن الشعر يعد فى المعتقد الشعبى مقر الروح الانسانى وممكن قوة الانسان • (انظر الفصل الخاص بالمعتقدات الشعبية المتعلقة بالجسم الانسانى فى هذا الكتاب) • وتتجلى أهمية الشعر فى المعتقد الشعبى بوجه خاص فى طقس « العقيقة » وهى التضحية بشعر الطفل فى يوم السبوع حيث يقص شعر البطن للطفل وينذر لاحد الاولياء ، أو يقص فيما بعد

---

(٢٩) تمثل التضحية بالشعر عنصرا أساسيا فى بعض الطقوس الدينية الاسلامية الهامة ، وهناك نظائر لتلك الممارسات لدى شعوب أخرى كثيرة . انظر دراسة مفصلة للتضحية بالشعر الانسانى (خاصة شعر الرأس) فى المصدرين التاليين :

Goldziher; Jgnaz; «Le sacrifice de la chevelure des Arabes»; dans Revue de L' Histoire des Religions; 1886; pp. 49 ff. Chelhod; Josef; Le sacrifice chez les Arabes; Paris; 1955. pp. 131 ff.

وكذلك كريس ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

وتترك منه خصلة من الشعر الاصلى (شعر البطن) لا تحلق الا بمناسبة مولد هذا الولى • وفى بعض الاحيان تدهن رأس الطفل بدم الضحية التى تذبح فى ذلك اليوم تكريما للولى • ويعد التقرب بشعر الطفل هنا نوعا من التضحية بأوائل الاشياء (كما يضحى بأول كمية أو أول حزمة من المحصول ، وأول قطيع الماشة ، وكما كان يضحى بأول المواليد وهكذا) • وقد حلت التضحية بالشعر محل التضحية بالوليد نفسه فيما بعد •

وقد عالج ياوسن هذا الموضوع معالجة مفصلة فى الفقرة رقم ٤٧ من مؤلفه الذى سبقت الاشارة اليه • حيث ذكر أن البدو فى أرض مؤاب كانوا يطلقون على أوائل الاشياء التى يضحون بها اسم «سماط» • وهى أساسا عبارة عن أوائل المنتجات الزراعية والحيوانية بالذات • فعندما يبدأ البدو أواخر الشتاء أو فى أوائل الربيع فى حلب ما شيتهم لا يتجرأ أحد منهم على شرب أول اللبن الذى ينثل من ضرع الماشية • وانما يترك جزء من أول اللبن المحلوب ، كما يترك جزء فى أول كمية تصنع منه من الزبد ، ويبقى هذا الجزء فى الوعاء الذى حلب أو صنع فيه لينذر لاحد الاولياء • وكانت الزبد توضع فى مصباح أحد الاولياء وقودا له • وتنذر هذه الاشياء لله ، أو لسيدنا الخضر ، أو لاى ولى محلى موجود فى المنطقة ، وبذلك يختلف الامر من فرد لاخر •

كذلك يضحى أولئك البدو بأوائل المحصول من الحبوب على اختلاف أنواعها وان كان يستثنى من ذلك مختلف أنواع الفواكه • ويضحى الناس أيضا بأول مواليد الشاه أو الماعز ، لنفس الجهات التى سلفت الاشارة اليها بالنسبة للبن والزبد • وعلى أن المولود الصغير من الماشية لا يذبح صغيرا ، وانما يذبح بطبيعة الحال بعد أن يكبر فى مناسبة أحد الاحتفالات أو المواسم الدينية • ولهذا السبب يعلم الوليد من الماشية بعلامة واضحة فى أذنه أو فى أى مكان ظاهر من جسمه ، بحيث يعرف أن ذلك الحيوان منذور لاحد الاولياء •

ولا يقتصر أمر هذا النذر لاوائل الاشياء والمواليد (من الحيوانات)

على المسلمين ، ولكن المسيحيين فى منطقة الكرك ، يقومون — كما لاحظ ياوسن — باحضار الحيوان المنذور الى الكنيسة لمباركته ، ثم يذبح ويؤكل فى وليمة عامة •

ولاحظ ياوسن حدوث نفس الظاهرة عند ظهور أحد الاوبئة بين الماشية ، حيث يحضر الراعى قطيعه بأكمله ، ويدور به حول الضريح لكى يعمل الولى صاحب هذا الضريح على حمايته من الوباء الاخذ فى الظهور • ويعين من بين القطيع شاة يذبحها نذرا وقربانا للولى ، ويختار لهذا الغرض الشاة التى تقترب من الضريح أثناء الدوران حوله أكثر من سائر حيوانات القطيع • اذ يعتقد أن اقتراب ذلك الحيوان من الضريح لم يكن صادرا عن الحيوان نفسه ، ولكنه نتيجة لاختيار الولى نفسه هذه الشاة من بين سائر حيوانات القطيع(٣٠) •

وقد درس جوزيف شيلهود Chelhod معنى الاضحية فى ضوء تفسير فان ديرليو Van der Leeuw فى كتابه الشهير « فينومينولوجيا الدين » باعتباره وسيلة لتحقيق الاتصال بين الانسان المتدين وبين المقدس• وهو اتصال يستهدف أن يفدى الانسان نفسه وأن يتطهر •وبذلك يتحقق بهذه المناسبة من الرحمة والعاطفة الدينية بين المعطى والمتلقى بواسطة هذه الاضحية ومن خلالها • وقد تعرض مفهوم الاضحية فى الاسلام لتغير كبير ، بسبب مفهوم المسلمين عن الله ، واختلافه عن مفهوم الشعوب السابقة على الاسلام • فالله فى الاسلام ليس فى حاجة الى الاضحية كمصدر لاسالة الدم ، كما كان الامر فى كثير من الاديان السابقة ، ولكن الاضحية تحولت الى وسيلة لاظهار الولاء والطاعة والتماس القربى والتعبير عن الخضوع لله • ولهذا السبب يحرص صاحب الضحية الذى يقوم بذبحها حرصا شديدا على أن يتلو قبل الذبح : « باسم الله ، الله أكبر ، اللهم منك واليك •• » اذ أنه بهذه الكلمات يعتذر صاحب الاضحية

---

(30) Jaussen; op. cit; pp. 364 ff and p. 358.

عن قتل ضحيته ، على أساس أن الروح التى سترهق من وراء هذا الذبح هى ملك لله سبحانه وتعالى •

وقد استعرض كريس فى كتابهما الذى سلفت الاشارة اليه من قبل بالتفصيل عملية الأضحية ، من حيث مسمياتها ، وكيفية اختيار حيوان الضحية ، وطريقة الذبح ، وطريقة توزيع اللحم ، ووليمة الضحية ••• الخ • (انظر ، كريس ، المرجع السابق ، ص ص ٣٤ وما بعدها) •

والمناسبات التى يضحى فيها الانسان بذبيح كثيرة متنوعة ، أولها ذبيحة الفداء ، التى تسمى « فدوة » وهى كما يتضح من اسمها وسيلة يشترى بها الانسان نفسه ، أو يفدى بها نفسه من وقوع مكروه أو حادث •• الخ وهناك أضحية النذر ، التى يقطع الانسان فيها على نفسه أن يقدم لله (أو فى العادة لولى معين) ذبيحة معينة اذا تحقق له غرض معين ، كرواج تجارة ، أو زواج ، أو نجاح أو انجاب •• الخ • وفى هذه الحالة تسمى الضحية « نذرا » • وقد يضحى الانسان قبل أداء عمل معين أو الدخول فى تجارة أو رحلة بقصد أن يكلل مسعاه بالنجاح ، بمعنى أنه يقدم دليل ايمانه وتقواه « مقدما » ، ولا ينتظر الى أن يتحقق غرضه • ويضحى الانسان أثناء المرض كى يشفى ، ويضحى لكى ينصره على عدوه ، وللحصول على الأطفال أو لشفائهم من مرض خطير ، أو لتجنب الاصابة فى حالة انتشار وباء أو ما شابه ذلك • أى أنه يمكن القول باختصار بأن الانسان يضحى فى كل المناسبات التى يستشعر فيها أن هناك أخطارا معينة تهدد حياته ووجوده وسعادته ، أو بعد أن ينجو من تلك الأخطار(٣١) •

---

(٣١) ويوجد علاوة على هذا النوع من الاضاحى الذى يتم فى المسجد أو أمام الضريح أو ينذر لولى معين .. الخ . أنواع اخرى من الأضاحى والنذور التى تتصل بمناسبات الحياة المختلفة ، وهى فى تنفيذها ترتبط بسياق اجتماعى أكثر منه دينى ، وان كانت ذات جذور دينية على اى حال . ولكننا لايمكن أن نتعرض لها تفصيلا لان ضريح الولى أو المسجد لا يمثل المحور الأساسى فيها ، ولا يدخل الولى كطرف أساسى فيها . من تلك المناسبات الاضاحى التى تقدم=

وفى بعض الأحيان يمكن أن نلمس جذور الاهتمام بدم الذبيحة ، والحرص على الاستفادة منه على نحو معين • حيث يحرص البعض على دهان جبهة الشخص الذى ذبحت من أجله الضحية بدم تلك الضحية ، ونجد ذلك الحرص واضحا فى حالة الأطفال بوجه خاص •

أما التصرف فى لحم الضحية فيخضع هو الآخر لقواعد محددة تراعى فى العادة فى كل حالة • فيصيب الجزار أو الشخص الذى قام بالذبح نصيبا معينا ، وكذلك أصحاب الذبيحة يحتفظون لأنفسهم عادة بأجزاء معينة وهكذا • ولكن الجميع يشاركون فى الوليمة التى تقام على تلك الذبيحة • ولكن هذا لا يمنع فى أغلب الأحوال أن يوزع الجانب الأكبر من لحم الضحية على الفقراء ، الذين يدعون الى هذه الوليمة ، أو تقدم اليهم فى مناسبات تجمع معينة (مثلا : يوم الجمعة فى مسجد الولى عقب الصلاة ، أو عند الولى بمناسبة المولد ••• الخ) •

وهكذا نرى أن الفكرة الكامنة وراء ممارسة تقديم ذبيحة ، أو أى نذر لولى ، هى فى الأساس فكرة بسيطة مؤداها أن الانسان وما يملك انما هو ملك لله • ولكن اذا أراد هذا الانسان أن يتجنب سوءا سيقع له أو ينقذ حياته من خطر محدق بها أو يشفى من مرض ألم به ، فانه يفتدى نفسه بهذه الضحية • ولما كانت القطاعات الشعبية فى المجتمع (أى القطاعات الأكثر حظا من الثقافة التقليدية) أقل قدرة على التجريد فى المجال الدينى ، فانها ترى الله بعيدا أكبر من أن تلجأ اليه ولذلك تلجأ الى الولى (ربما لدى البعض كواسطة الى الله) ، ولكن لدى الأغلبية كعامل فعال فى تنفيذ رغبة صاحب الحاجة • فتقدم الضحية لهذا الولى ، وتحاول

=بمناسبة بناء بيت جديد (حيث تذبح حيوانات وتقام وليمة)، وبمناسبة الزواج، والموت ، وميلاد آخر الأطفال ، وبمناسبة استضافة ضيف عظيم أو نزوله الى القرية ، وفى الختان ، وعند بدء المحصول ، وفى غير ذلك من المناسبات التى تمثل الذبيحة فيها جزءا من جو الاحتفال الاجتماعى ، أكثر منه جزءا من طقس دينى .

أن تذكره بكافة السبل ، من هذا مثلا مسح عتبة ضريحه بدم الضحية كى لا ينسى طلب صاحب الحاجة • ولا ننس كذلك أنه تقـوم بين الضحية والشخص الذى تقدم له علاقة خاصة فيها شىء من التعاطف والالتزام • فالشخص الذى ينذر تمسح جبهته بدم الذبيحة ، وكذلك القطيـع الذى يفدى عنه تمسح حيواناته بدم تلك الذبيحة وهكذا •

وقد قدم العالم الالمانى باول كال Kahle تلخيصا للآراء التى قيلت فى تفسير الممارسات التى يستخدم فيها دم الضحية(٣٢) • فعـلامة الكف الذى يغمس فى دم الضحية ويرسم على حائط الضريح أو غـير ذلك قد يكون مجرد علامة للذكرى يذكر فيها الزائر الولى بزيارته ووفائه بنذره ، أو اذا كانت الضحية سابقة على تحقيق الطلب ، فتكون تذكره للولى بألا ينس تحقيق رغبة الزائر التى سأله اياها • أما تلطيخ عتبة بيت صاحب الضحية أو جدار بيته بدم تلك الضحية فيهدف الى نقل البركة الى بيت ذلك الرجل ، لأن الضحية ودمها ملك للشيخ (الولى) ، ولصق جزء منها على البيت فيه استعارة لبركة ذلك الشيخ ، كما أنها قد تعنى امتداد قوة الشيخ وحمايته لتشمل أهل البيت تدفع عنهم الشرور والأمراض وتحميهم من الاضرار المختلفـة • أما تلطيخ جسد الشـخص الذى ذبح من أجله حيوان الضحية بدم تلك الضحية فهو اظهار لرغبة الاهل فى تحقيق رابطة وصلة قوية بين هذا الشخص والضحية التى قدمت من أجله تعبـيرا عن الرغبة فى أن ينتفع بها انتفاعا حقيقيا وتحقق له ما ذبحت من أجله •

ونحن نعلم أن هناك ممارسات أخرى عديدة تبرهن على نظر المعتقد الشعبى الى الدم كمقر للروح أو تجسيد لتلك الروح ، كما يحدث من خلط دماء شخصين عند عقد مؤاخاة بينهما ، بحيث يصـبح هـذا الشخصان (الغريبان أصلا) بمثابة أخوين تماما تربط بينهما أخوة الدم • ولهذا فان امتزاج جسد المضحى من أجله بدم ضحيته هو الآخر تعبر عن التضحية

(32) Kahle; Paul; «Die Gebrauche bei den muslemischen Heiligtümern in Palastina»; in : Palastina Jahrbuch; Vol. 8; 1912; pp. 159 ff.

بروح (هى روح حيوان الضحية) من أجل سلامة روح أخرى (هى روح المضحى من أجله) •

وهناك حالات أخرى لا يقدم فيها نذر أو ضحية ولكن الناس يسمون الذبيحة « قربانا » ، أو وليمة لله • وفى هذه الحالة لا يتم الذبح عند مقام أحد الأولياء ، وانما فى أى مكان أمام البيت أو داخله • ولا يوزع لحم الذبيحة على النحو السابق ، وانما يوزع كله على الفقراء • ويتم ذلك أحيانا فى حالات المرض الشديد التماسا للشفاء أو فى غير ذلك من المناسبات • ومع ذلك فان هذه الفروق ليست واضحة ومحددة بهذه الدقة فى الممارسة اليومية ، وانما يمكن أن يختلط الأمر ، وتتبادل المسميات بين النوع والآخر من أنواع الضحية• فيحدث نوع من الحل الوسط التوفيقى بين أن يهب الانسان لحم الضحية لله أو للولى وللفقراء ، على أساس أن الفقراء والولى يدخلون طرفا فى العلاقة فيتناولون اللحم المنذور لله •

وقد أشار شيلهود فى دراسة عن الضحية الى بعض التحفظات فيما يتعلق باستخدام كلمة « وليمة » • حيث يرى أن الوليمة هى فى الأصل وليمة الدفن ، أو وليمة الميت ، أو وليمة لتكريم الأسلاف القدامى • ويشارك فى تلك الوليمة الفقراء وعامة الناس ، ويكون من امارات الرفعة وعلو الشأن ألا يشارك الوجهاء من الناس فى تناول مثل هذه الوليمة • ويلاحظ كريس أن آراء شيلهود وملاحظاته تنصب أساسا على القبائل العربية فى الجزيرة ، وليس على شعوب وادى النيل ، أو منطقة الشام(٣٣) • ومع ذلك فاننا يجب أن نؤكد فى هذا السياق وفى كل موضوع أن التصنيفات فيما يتعلق بالممارسات الشعبية لدى الشعوب العربية — كما هو الحال عند كل الشعوب — يجب أن تؤخذ بحذر شديد ، لأنها لا يمكن أن تكون جامعة مانعة ، ولا يمكن أن تكون جامدة أبدا • ذلك أن التنويعات المحلية والاجتماعية والتغيرات المستمرة تعوق اقامة مثل هذه التصنيفات الجامدة الثابتة •

---

(٣٣) انظر شيلهود ، المرجع السابق ، ص ١١٧ •

والقاعدة العامة على أى حال هى ضرورة الوفاء بالنذر الذى يقطعه الشخص على نفسه ، لان عدم الوفاء يدعو الولى الى الانتقام من الشخص واصابته بما لا يطيق من الآلام والمتاعب • وان كان يمكن أن ينفق من المال ما يساوى قيمة النذر اذا لم يجد سبيلا الى الوفاء بالنذر المعين الذى قطعه على نفسه • أى أن التبديل والتغيير ممكن فى حدود قيمة الشىء المنذور للولى • كما أن الشخص نفسه قد تعوقه ظروف معينة (كالوفاة أو المرض أو السفر أو غير ذلك) عن الوفاء بنذره ، ويمكن لغيره أن يفى عنه به ، فلا يتعرض لايذاء الولى •

وعلاوة على الذبيحة يمكن للشخص أن يختار أشياء أخرى عديدة كموضوع للنذر يتعهد بتقديمه للولى ، فليس من اللازم أن يكون النذر دائما ضحية أو ذبيحة • ومن الأشياء التى نجدها تتكرر كنذور : المواد الغذائية بأنواعها (كالفول ، والخبز ، والعدس ، والحبوب ، والخضروات والفواكه ••• الخ) ، وقطع الأثاث التى تستخدم فى تزيين الضريح كالمقشات ، والسجاجيد ، والمصابيح ، وكسوة المقام ، والمصاحف ، والكتب ، والحصر وغير ذلك • ومن الاشياء التى تنذر للولى أيضا : البخور ، والكيروسين أو الزيت (قديما) ، وأحيانا بعض الأشياء الشخصية (كأن يهب الشخص للضريح شيئا عزيزا عليه من ملابس أو حلى) •• الخ •

والمهم فى الأمر أن حكايات ونوادر شعبية كثيرة تتواتر حول حرص الولى الشديد على التزام الشخص بالوفاء بنذره ومحاسبته على ذلك أدق حساب ، بل وأحيانا محاسبة أسرته من بعده اذا ما توفى قبل أن يوفى بنذره •

ومن الأشياء التى تعلق فى أضرحة الأولياء أيضا « عروسة القمح »، وهى عبارة عن شكل مجدول من عيدان القمح الخضراء تزينها السنابل وتصنع فى شتى أنحاء مصر ومن كل من المسيحيين والمسلمين وفى مناسبات شتى • وهى تعلق عادة على أبواب البيوت أو فى مداخلها كتعويذة تحمى

أهل البيت من العين الشريرة الحاسـدة • ولكن تعليقها فى ضريح الولى يعنى الشكر على وفرة المحصول أو جودته (وقد عالج كريس هذه الظاهرة بتفصيل كبير فى الجزء الثانى من كتابه ضمن دراسته للسحر) •

وقد يتبرع أحد الأشخاص بزرع شـجرة مثمرة أمام الضريح أو بجواره ، وتكون الشجرة وثمارها فى هذه الحالة ملكا للولى • كما يتبرع الناس بألوان الصباغة المختلفة كالحنة والنيلة لتزيين الضريح وتلوينه • كما يدخل فى هذا الباب التبرع بمواد البناء المختلفـة كالطوب والجـير وغيرهما • خاصة وأن الولى الذى ينتشر تكريمه بين الناس يجب أن يطلى ضريحه مرة على الأقـل كل عام • ويتولى ذلك عادة محبوه وزواره ومن أصابهم بفضله ، وان كان يمكن أن يضطلع خادم الضريح بذلك العمـل أيضا • وقد ينذر الشخص للولى أن يعمـل فى خدمة ضريحـه فترة من الزمن ، كأن يتولى أو تتولى صاحبة المصلحة كنس الضريح لمدة عام أو نصف عام ، أو تتحمل جهدا فى جمع مواد بنائه أو القيام بعملية البنـاء وهكذا • وقد ينذر الشخص أو يصنع رايات (بيارق) تعلق على ضريح الولى ، وتحمل فى موكب مولده •• الخ •

ولكن الظاهرة التى تستحق أن نقف عندها بهذه المناسبة هى وجود كثير من الخرق (قطع من ملابس مستعملة) المعلقة داخل الضريح ، كأن تلقى على القبر ، أو تعلق على حبل ممتد داخل الضريح ، أو على شجرة مزروعة داخل الضريح أو بجواره ، أو على صارى بالقرب منه وهكذا • ويكاد لايخلو ضريح من أضرحة الاولياء فى ريف مصر من وجود تلك الخرق المعلقة ذات الألوان والاشكال المتباينة • وقد سجل كنعان هذه الظاهرة بالنسبة لفلسطين فى مطلع هذا القرن ، كما لاحظها أيضا كريس فى جولاته فى البلاد الاسلامية فى العقد الماضى •

وقد اجتهد الباحثون فى تفسير هذه الظاهرة الواسعة الانتشار ، من هذا مثلا أن الشخص الزائر للضريح وصاحب الحـاجة لدى الولى يمزق قطعة من ثيابه، ويتركها فى الضريح تذكارا للولى أنه قد زاره وأدى واجب

التحية والتكريم • وقد يكون تذكارا محددا للولى يدعوه به الى ألا ينسى أن يقضى له حاجته التى سأله اياها • بل ان المريض عندما يقطع جزءا من ثوبه ويلقيه على مقـام الولى ، انما يعتقـد بذلك أنه ألقى مرضـه على الولى ليتولى هو ازاحته عنه • وقد سجل كريس بعض العبـارات التى تحمل هذا المعنى والتى يتلوها الزائر المريض وهو يلقى بخرقة فوق مقام الولى : « رميت مرضى عليك ، ياولى الله » • (انظـر كريس ، المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ٣٩) •

كما لاحظ كريس أيضا أن هناك ممارسات أخرى ترتبط بهذه الخرق الكثيرة المتناثرة فوق ضريح الولى • حيث يحرص بعض زوار الضريح على أن يأخذ معه واحدة من تلك الخرق الموجودة على المقام أو داخـل الضريح • وهى معه بمثابة بركة من ضريح الولى يتبخر بها ، أو يعلقها فى بيته ، أو يربطها على رأسه اذا كان يعانى من صداع ،أو يضعها فوق أى جزء مريض من جسمه• وعليه فى هذه الحالة أن يضعخرقة أو خرقا أخرى غير التى يأخذها ، لكى يتصل الأخذ والعطاء • والجـدير بالذكر هنا أن الاحجار الصغيرة (أو قطـع الزلط) يمكن أن تؤدى الدور الذى تؤديه الخرق ، حيث يضع الشخص قطع الأحجار داخل مقصورة الولى ، ويأتى آخر ليأخذها ، بينما يأخـذ هو بعضها أو واحـدة منها لنفس الأغراض السابقة التى أشرنا اليها عند حديثنا عن الخرق •

ومن الأضاحى والنذور التى تقدم لضريح الولى فى السودان قيـد الجمل (الذى يربط قدماه الأماميتان لمنعه من القيام) الذى يلقى داخل المقصورة عندما يكون هذا الجمل قد فقد من صاحبه ، ثم وفق فى العثور عليه • ويحمل هذا القربان فى هذه الحالة معنى مزدوجا ، فهو أولا تعبير عن شكر الشخص للولى لعثوره على الجمل ، ثم هو ضمان لهذا الشخص ألا يضيع جمله مرة أخرى ، لأن الولى هو الذى يتولى حراسته وحفظه فى هذه الحالة • (انظر كريس ، المرجع السابق ، ص ٤٠) •

ومن النذور والهدايا التى ينتشر وجودها فى أضرحة الأولياء فى مصر

بصفة خاصة سفينة المولى • والطريف فى أمر هذه السفن أنها تعد قربانا ونذرا ، كما أنها تعد فى نفس الوقت (ولكن بشروط معينة) جزءا من مكونات الضريح وركنا من الأركان الأساسية فى موكب مولد الولى كل عام • وهى قد تصنع من الخشب ، أو من الصفيح والخشب معا ، أو من الورق فقط • وقد يدخل القماش فى جميع الأحوال لاكمال مظهر السفينة• وبعضها يمكن أن تدخل اللمبات الكهربائية فى تزيينه ، بحيث تقاد السفينة أيام المولد مساهمة فى احيائه والاحتفال به • وقد تظل مثل هذه السفن معلقة داخل الضريح ، وبعض الناس يأخذها ، أو أجزاء منها ، الى بيته يعلقها أمام البيت أو فى مدخله أو داخله تبركا بها واستعارة لحماية الولى بحيث تمتد الى بيته وأهله وماله • ويمكن أن يطلق الفنان الشعبى العنان لخياله فى تزيين السفينة ، فيحليها بالرسوم ، وقد يكتب عليها اسم الولى وربما اسمه هو أيضا ••• وهكذا • وقد يزودها صاحبها بنسخة مصغرة من القرآن الكريم ، أو أحد الأحجبة وغير ذلك •

وقد تعرضت هذه الممارسة لعملية تطوير طريفة فى العصر الحديث ، حيث يبدو تكيف العناصر الاعتقادية الشعبية مع ظروف العصر • حيث يمكن أن تصنع تلك السفن بكميات تجارية ، أى يتولى أحد المصانع (اليدوية البسيطة) صناعتها بكميات كبيرة ، وتباع بأجر بمناسبة أحد الموالد • ويشتريها الناس ليأخذوها معهم الى بيوتهم بركة وذكرى لزيارة الولى ، مع أنه — كما هو واضح — ليس لها صلة بالولى فلا هى نذرت له ، ولا علقت فى ضريحه ، أى أن الصلة الشخصية الحميمة بين السفينة والولى لم يعد لها وجود • ومع ذلك تصنع مثل هذه الأشياء وتباع وتتداول ، ويمكن أن نجدها معلقة فى البيوت أو فى مداخل المحلات التجارية • وهذه الظاهرة لوحظت لأول مرة فى منتصف الخمسينات فى مولد سيدنا الحسين (كريس المرجع السابق) ، ومازالت موجودة حتى اليوم دون انقطاع • وهى اشارة الى تطور فى احتفالات الموالد قريب من تطورها فى أوربا الى مناسبات سياحية لتجارة العاديات وقطع الذكرى التى يحتفظ بها الشخص من الاحتفال كالميداليات وصور الولى وغير ذلك•

وتقودنا تلك النقطة الأخيرة الى الاشارة فى النهاية الى تجارة الصور الدينية التى تروج فى الموالد • وهى الأخرى من الظواهر الحديثة التى ظهرت مؤخرا ، والتى ترتبط بازدياد عدد رواد الموالد ، وتقدم امكانيات الطباعة ، وامكانية اخراج تنويعات كثيرة من هذا النوع من الصور بنفقات قليلة تتناسب ودخول الطبقات الشعبية التى تتردد على هـذه الموالد ، وتقتنى مثل هذه الصور •

ومن الموضوعات التى تصورها تلك المطبوعات :

- قبر الرسول فى المدينة والحرم النبوى •
- الحرم المكى والكعبة •
- السيد البدوى •
- سيدى ابراهيم الدسوقى •
- ناقة صالح •
- الكعبة وفيلة أبرهة تهاجمها •
- سيدى عبد القادر الكيلانى (الجيلانى) •
- سفينة نوح والمخلوقات التى عليها •
- صورة البراق •
- قبر سيدى أحمد الرفاعى •
- آيات قرآنية ••• الخ •

ولا شك أن دراسة هذا الموضوع من حيث مواقع انتاجه ، واختيار موضوعات الصور ، والقواعد والاعتبارات التى يخضع لها الفنان الذى يقوم بالرسم من حيث اختياره للموضوع وتخيله للتفاصيل والقيود التى يضعها على نفسه (مثلا : من حيث عدم تصوير أشخاص دينية معينـة كالرسول عليه السلام) •• الخ كل تلك الأمور تحتاج الى دراسة مفصلة وترتبط بكل جوانب التجديد فى الاحتفال بالأولياء •

١٨ ــ الطقوس والممارسات عند قبر الولى

تتمتع كل الأشياء والمواد الموجودة فى الضريح بعــلاقة خاصة مع الولى ، وتنسحب عليها كل صفات القداسة التى يختص بها الولى ، ولذلك لا يحق لأى زائر أن يعتــدى عليها أو ينال من هيبتها • ويتــولى الولى بنفسه حماية ضريحه ، وليس هناك شىء يزعج الولى ويضايقه أكثر من تدنيس ضريحه أو الاعتداء عليه •

ولكننا نجد فى نفس الوقت أن كل ما ينتمى الى الضريح يتميز ببركة الولى وله منها نصيب ، ولذلك يحاول الزائر أن يأخذ لنفسه كل ما يمكن أخذه من الضريح أو مما حوله (دون أن يضايق ذلك الولى أو يغضبه) ، وكلما زاد حظه من ذلك ، كلما كان أفضل من وجهــة نظر الزائر • ونحن نعلم أن الناس تلجأ الى الولى أكثر ما تلجأ فى حالات الاصابة بالمرض ، ذلك أن كل ما ينتسب الى الولى يتميز بقوة خارقة ، من هذا على ســبيل المثال : الأشجار القائمة فى الضريح أو ثمارها ، والحشائش المزروعة فى أرضه ، والأحجار ، والميــاه ، والتراب ، والزيت ، والمصباح •• الخ • ولذلك يأخذ الزائر المريض هذه الأشياء معــه الى البيت للانتفاع بها فى العلاج • كما أن هناك بعض الممارسات التى يمكن أن تتم داخل الضريح أو بجواره • ففى البخور عند الضريح يستخدم المريض الخرق الموجودة معلقة داخله ، كما يستخدم أعواد الأشجار المقدسة النابتة فيه ••• الخ • كذلك يستخدم ماء العيون الموجودة عند القبر، أو حتى ماء البركة المتجمعة بجواره ، فى غسل الأجزاء المريضــة أو الاســتحمام أو غــير ذلك من الاستخدامات الطبية العلاجية •

ومن الوسائل الفعالة الواسعة الانتشار للحصول على بركة الولى الطواف حول المقام ، عددا وترا من الدورات ، سبعة أو ثلاثة على نحو ما هو شائع •

ولا يقتصر الطواف حول القبر على الآدميين ، ولكنه موجود وشائع

أيضا بالنسبة للحيوانات ، فقد يصطحب الفلاح معه حيوانه المريض ، أو قطيعه المهدد بالمرض ، للطواف حول الضريح ، من خارج المبنى طبعا (بسبب مراعاة طهارة المكان من الداخل) .

والأفضل من ذلك ، والأكثر فاعلية ، أن ينام الشخص داخل الضريح ، بجوار المقام ، ليلة أو عدة ليال (ذات عدد مفرد أيضا) . ويفضل لهذا الغرض قضاء ليلة الجمعة (من الخميس الى الجمعة) ، فهى أفضل وقت لمن يريد أن ينام ليلة واحدة بجوار الضريح . ويعتقد أن الولى يظهر للنائم فى هذا الوضع فى المنام ، ويقضى حاجته ، أو يخبره بنبأ ما يريد أن يعرفه(٣٤) . ويفضل الناس النوم فى الضريح فى حالات الاستخارة ، عندما يريد معرفة أسلوب حل مشكلة معينة ، أو اتخاذ قرار قبل الدخول فى مشروع معين (كزواج أو تجارة .. الخ) ، فيذهب الى الضريح وينام ليلته ، ويسمع جواب الاستخارة من فم الولى فى المنام(٣٥) .

وأشهر الأمراض التى من أجلها يذهب الناس الى أضرحة الأولياء التماسا للشفاء : الحمى بأنواعها ، والعقم (وكافة المشكلات المتصلة بالخصوبة والجنس) ، والأمراض الجلدية ، والأمراض العصبية والنفسية ، وأمراض العيون ، واحتباس البول ... الخ . ومعروف أن هناك نوع من التخصص بين الأولياء فى علاج هذه الأمراض . فمع أن هناك أولياء يمكن اللجوء اليهم لعلاج أى مرض ، الا أن العادة أن أى ولى يتمتع بشهرة خاصة فى علاج مرض معين . والمعروف أن زيارة الولى

---

(٣٤) من الجدير بالذكر أن هذه الممارسة كانت شائعة أيضا عند العرب قبل الاسلام ، حيث كانوا يبيتون فى الكعبة لنفس الغرض ، انظر كريس ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ، وكذلك المراجع الواردة هناك .

(٣٥) مازال هذا الاعتقاد وتلك الممارسة شائعة حتى اليوم فى المغرب ، انظر حول هذا :

Westermarck; Edward; Ritual and belief in Marocco; London; 1926; Vol. II; pp. 56 ff.

للعلاج تتطلب عـلاوة على مراعاة التخصص مراعاة عـدد من الشروط والمواصفات المتصلة بالطهارة ، ومراعاة الوقت المناسب ، والصدقة ... الخ .

وعلاوة على العلاج تلعب أضرحة الأولياء دورا هاما فى عملية حلف اليمين أو أداء القسم بطقوسها وقواعدها المختلفة . فاليمين الذى يؤدى عند ضريح ولى له قيمة خاصة ، والولى هو الذى يتصدى لمن يكذب فيه أو يحنث . وتتم هذه العملية فى مناسبات عديدة : العهد بين شخصين أو عدة أشخاص على نية معينة أو عمل محدد ، أخذ اليمين على المتهم بسرقة أو عمل شائن ، الاستدانة .. الخ . هذا مع مراعاة أن الحلف يكون بالله، الا أن الولى هو شاهد هذا العهد ، وهو الكفيل بمن ينكثه . وغالبا ما تكون هذه العملية الوسيلة الوحيدة لتسوية عديد من الخلافات أو تحقيق عدد من الاتهامات المتبادلة التى لا يمكن تسويتها أو تحقيقها بالطرق العادية ، ولكنها تظل مع ذلك معلقة بحق أولئك الأشخاص .

ويقدم يوهانس زونن J. Sonnen — وهو خبير متخصص فى دراسة البدو — تفسيرا لهذه الظاهرة التى تبـدو غريبة متناقضة ، وهى عـدم خشية الناس أن تقسم بالله يمينا كذبا ، على حين تخشى أشـد الخشية أن تقسم يمينا كذبا بأحد الأولياء . فالطبقات الشعبية تعتقد أن الله غفور رحيم ، يمكن أن يغفر لمن يحلف به كذبا ، خاصة اذا كان فى محنة أو مأزق، ولكن الولى صاحب المقام لا يعرف هذا التسامح ولا هذه الرأفة . فانتقامه لمن يحلف به كذبا سريع وحاسم ورادع .

على أن مثل هذا التفسير العقلى المنطقى لمثل هذه الظاهرة يبـدو مقحما على العقلية الشعبية لعدة أسباب ، أو أنه ليس هو التفسير الوحيد الممكن . لأن الفيصل فى الأمر ليس هو مجرد صيغة اليمين . اذ أنه كثيرا ما يتم الحلف باسم الله فقط ، ودون أدنى اشارة للولى . ولكن الحاسم فى الأمر هو الموقف الدينى الكلى . فالحلف بالله يمكن أن يتم بأى مناسبة وفى أى مكان دون أى مراسيم أو قواعد خاصة . أما القسـم عند قبر

الولى فانه عملية طقوسية لها مراسيمها وقواعدها وتحيط بها عديد من الاجراءات الخاصة ، أقلها أنه يستلزم بعض الاستعدادات ويؤدى الى اخراج الناس (المشاركين فى الموقف) من روتين حياتهم اليومى ، ممـا يشعرهم برهبة الموقف وجسامة مسئولية هذا القسم أو حتى الشهادة عليه •

ويصور زونن Sonnen عملية القسم تصويرا دقيقا معبرا • من هذا مثلا أن المسروق هو الذى يحدد الضريح الذى سيتم تحليف المتهم فيه ليدلل على براءته • واذا رفض المتهم الولى الذى اختاره المسروق ، تدخل شيخ القبيلة لكى يختار بنفسه وليا آخر يرضى عنه الطرفان • وفى بعض المناطق (عند بعض القبائل التى كانت مقيمة حول بحيرة طبرية بفلسطين) كان يتعين على المتهم أن يستحم ويتطهر قبل الذهاب لحلف يمين البراءة • ثم يرفع يديه الى السماء وينطق الشهادة • ثم يدخل الخصمان ومعهما الشهود الى داخل حجرة دفن الولى (المقام) ، حيث يضـع المتهم يده اليمنى على شاهد الولى ويقسم : وحياتك يا فلان (اسم الولى) ، وحياة من أماتك (والله) ، وحياة سرك وكرامتك وحياة اللى جابك هنا ، أشهد يا فلان (اسم الولى) وأشهد يا فلان (اسم الشخص المسروق) أننى لم أسرق بقرتك (مثـلا) ، ولم آخـذها ، ولم أبعهـا ، ولم أبددها ، ولم أشترها ، ولم آخذها ، ولا سمعت عنها ، ولا بلغنى عنها أى خبر ، ولا أعلم عنها أى شىء • واذا كنت باحلف كذب يا فلان (الولى) ، عاقبنى ، واذا كنت بأقول الحقيقة ، خلينى أحج بيت الله ، وساعتها يقع الذنب والجريمة عليك يا راعى هذه البقرة ، الذى طلبت منى حلفان اليمين »(٣٦)• وبأداء اليمين تنتهى الواقعة ولا يصبح للمسروق أى حقوق أخرى على المتهم •

---

(36) Sonnen; Johannes; Die Beduinen am See Genesareth; Koln; 1952.

زونن ، القبائل البدوية حول بحيرة طبرية ، كولونيا ، ١٩٥٢ ، ص ص ١٠٤ وما بعدها .

ويحكى زونن عن تجربته الشخصية فى هذا الموضـــوع حيث سرق منه ثور ـــ أثناء دراسته ـــ واشتبه فى مجموعة من الشباب وطالبهم بأداء اليمين لتبرئة أنفسهم من التهمة • وتجمع أولئك الشبان صباح اليـــوم المحدد أمام قبر الولى ، وكان بينهم شاب معين أصيب باصفرار فى الوجه واضطراب شديد ، ثم انهار فى اللحظة الأخـــيرة عندما حان دوره لأداء اليمين ، واعترف بالسرقة ، وأحضر الثور المسروق فى اليوم التالى(٣٧) •

ومن الممارسات الأخرى التى تتم عند الضريح عمليات تقـــديم الأضاحى ، والنذور ، حيث يفضل تقديمها للأولياء المحليين ، ولا تقـــدم فيما عداهم الا لكبار الأولياء المشهورين • وقد تناولنا الأضاحى والنذور بالتفصيل فى مكان سابق من هذا الفصل •

ومن الظواهر الطريفة فى هـــذا الصدد والجـــديرة بالتســـجيل أن المسيحيين يمكن أن ينذروا نذرا لولى مسلم ، والعكس بالعكس حيث ينذر بعض المسلمين نذرا لقديس مسيحى وهكذا • وقد يصل الأمر الى حـــد نذر اطلاق اسم مسيحى على طفل مسلم (بالنسبة لامرأة يموت عنهـــا أولادها) ، أو العكس حيث تنذر أسرة مسيحية اطلاق اسم مسلم على طفلها •• وهكذا • وهناك شواهد كثيرة على تبادل الاعتقاد فى الأولياء بين المسيحيين والمسلمين ، يمكن أن نصادفها فى مختلف فصول هذا الكتاب •

---

(٣٧) المرجع السابق ، نفس الموضع •